

التعليق الكبير

في مسائل الخلاف

على مذهب الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن حنبل

«الشامل لبعض كتاب الاعتكاف وكتاب الحج وبعض كتاب البيوع»

«المجلد الرابع من أصل أحد عشر مجلدًا»

تصنيف

القاضي أبي يعلى الفراء

محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي المحنبي

المولود ببغداد سنة ٣٨٠ هـ والمتوفى بهاسنة ٤٥٨ هـ
رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

مختصة من المحققين
بإشراف
أستاذنا العلامة السيد محمد باقر
نور الدين طالع

المجلد الأول

كتاب التوابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرابع من التعليقة الكبرى

في مسائل الخلاف على أقسام الإمام الأعظم الميرزا محمد باقر
 العلامة أبي عبد الله أحمد محمد علي الشيرازي
 تصنيف الشيخ الإمام العلامة وحيد عمره وفريد دمه الفاضل أبي يعلى محمد بن
 الحسين محمد العبد المذنب
 رضي الله عنه

* مدح ابن عقيل لأبي يعلى :

قال فيه ابن عقيل : لم أدرك فيما رأيت من العلماء - على اختلاف
 مناهجهم - مَنْ كُمِّلَتْ له شرائط الاجتهاد المطلق إلا ثلاثة : أبا يعلى بن
 الفراء ، وأبا الفضل بن الهمداني الفرضي ، وأبا النضر بن الصباغ .
 «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٢٣/٥)

* كلام ابن تيمية عن التعليقة :

أرسل شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه يطلب من إخوانه إرسال تعليق
 القاضي أبي يعلى ، فقال : وترسلون - أيضاً - من تعليق القاضي أبي يعلى
 الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع ، وهو أحد عشر مجلداً ،
 وإلا ، فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة ، وذكر كتباً يطلبها منهم .
 «العقود الدرية» (ص : ٣٠١)

التعليقة الكبرى

في مسائل الخلاف

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٨ - ٤٥ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN



9789933418458



سورية - لبنان - الكويت

مؤسسة دار النوادر م.ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش.م.م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ.م.م - الكويت

سورية - دمشق - ص.ب. : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص.ب. : ٥١٨٠/١٤ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص.ب. : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسست سنة ٢٠٠٦ م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللَّ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم لا سهلَ ما لم تُيسِّره، ولا صعبَ إن يَسِّرته.

أما بعد :

فإن فن الخلاف : علمٌ يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبهة وقوادح الأدلة الخفية، بإيراد البراهين القطعية، وهو الجدل الذي هو من أقام المنطق، إلا أنه حُصِّرَ بالمقاصد الدينية.

وقد يعرف بأنه : علم يُقْتَدَر به على حفظ أيِّ وضع، وهدم أيِّ وضع كان بقدر الإمكان.

ولقد كان الإمام الحبر، قاضي القضاة، شيخُ الحنابلة، وعلامةُ

الزمان، القاضي أبو يعلى بن الفراء من أقعد الأئمة بهذا الفن، حتى قال عنه العلامة ابن بدران: وأجمع ما رأيته لأصحابنا في هذا النوع: «الخلاف» للقاضي أبي يعلى^(١).

فقد برع في علم من أشق العلوم، وهو علم الخلاف؛ إذ يقضي هذا العلم أن يتمكن العالم من مذهبه، والإحاطة بأصوله وفروعه، ثم يتمكن من مذهب غيره وأدلتهم، ثم يقوم بعد ذلك بهدم وإبطال حجة المخالفين، ونصرة مذهبه، وهو أقوى علماء الحنابلة في هذا الجانب؛ كما شهد له بهذا ابن بدران في «المدخل»^(٢).

ومصنفاته - رحمه الله - مليئة بالاحتمالات والاختيارات والوجوه. ومن أجود ما وقفنا عليه في هذا الباب من مصنفاته كتابه «التعليقة الكبيرة»، وهو كتاب ضخيم في أحد عشر مجلداً، كما أفاد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -^(٣)، وصلنا قطعة منه اشتملت على المجلد الرابع فقط، يتضمن مسائل من كتاب: الاعتكاف، والحج، وبعض البيوع بلغت ثلاث مئة وإحدى وثلاثين مسألة.

وتبرز أهمية هذه القطعة؛ بكون مؤلفها الإمام القاضي أبي يعلى بن

(١) انظر: «المدخل» (ص: ٤٥٠).

(٢) «القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية» للدكتور عبد القادر أبو فارس (ص: ١٧٨ - ١٧٩).

(٣) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص: ٣٠١).

الفراء، الذي قال فيه ابن عقيل : لم أدرك فيما رأيت من العلماء - على اختلاف مناهجهم - مَنْ كُمِلَتْ له شرائطُ الاجتهاد المطلق إلا ثلاثة: أبا يعلى بن الفراء، وأبا الفضل بن الهمداني الفرضي، وأبا النضر بن الصباغ^(١).

وقد أرسل شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه يطلب من إخوانه إرسال تعليق القاضي أبي يعلى، فقال: وترسلون - أيضاً - من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً، وإلا، فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة، وذكر كتباً يطلبها منهم^(٢).

ولو قُدِّر لهذا الكتاب أن يُحفظ على مر السنين، لكان مرجع كل فقيه حنبلي، فمؤلفه إمام مقدّم، وهو شيخ الحنابلة في عصره، إليه يُرجع في الرواية والتصحيح والترجيح على مذهب الإمام أحمد، والكتاب نفسه نبعٌ استقى منه علماء الحنابلة على مرّ الزمان، فنقلوا عنه راضين به، مطمئنين إليه.

وقد وجدنا في القطعة التي وصلتنا من الفوائد ما يحثُّ على نشرها، لا سيّما ما ذكره من روايات عن الإمام أحمد، لم نجد أكثرها في شيء مما بين أيدينا من المصادر، كما أن مطالعه يستطيع أن يلتقط من فوائد

(١) نقله تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٥ / ١٢٣).

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٣٠١).

هذا الكتاب دُرراً، ويشحذ بمُحاكماته فِكْراً، ويزداد من فقهه نُبْلاً، ومن فيضه علماً.

وقد وفقنا الله للحصول على نسختين خطيتين لهذه القطعة :

أولاهما : نسخة دار الكتب المصرية .

والثانية : نسخة فيض الله أفندي بتركيا .

ولعلمهما منسوختان عن أصل واحد كما تبين لنا ، وسنوضحه في وصف النسخ الخطية ، وقد كثر فيهما الخطأ والسقط ؛ إذ صححنا فيهما مواضع كثيرة ، وزدنا على النص زيادات ضرورية مما لا يقوم النص إلا بها ، وجعلنا كل ذلك بين معكوفتين ، كما سنبينه في منهج التحقيق ، وكان ذلك كله بعد تأمل وتفكّر طويلين ، مما نرجو أن يكون مكافئاً عليه بالمنّ والإحسان من الخالق المنّان ، إنه وليّ ذلك ، والقادر عليه^(١) .

(١) ومما يناسب إيراده هنا ما قاله الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس في رسالته الدكتوراه المقدمة سنة (١٩٧٤م) بجامعة الأزهر ، والموسومة بـ: «القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية» (ص: ٢٠٠) حول النسخة الخطية لكتاب التعليقة : «وهذه النسخة - أي : نسخة دار الكتب المصرية - خطها رديء للغاية ، تكثر فيها الفراغات ، والكلمات غير المقروءة بسبب عدم ظهورها ؛ مما تُسبب الإزعاج الشديد للقارئ ، ويجد صعوبة بالغة عند قراءة صفحة واستيعابها في أحيان كثيرة ، بالإضافة إلى أنها متعبة للبصر .

قال : وهنا شعرت حقاً بالمشاق الكبيرة التي يواجهها هذا الجندي المجهول «المحقق» ، وأيقنت أن تحقيق أي كتاب أصعب بكثير من التأليف ابتداءً ، =

وإن كان من فضل يُسند في هذا العمل ، فهو إلى الباري - سبحانه وتعالى - الذي منَّ بالتوفيق والإعانة في نشر هذه القطعة النادرة المثل ، ثم ما تفضل به من تهيئة اللجنة العلمية للقيام بهذا العمل المبرور ، وأخص بالذكر منهم : الأستاذين الباحثين الفاضلين :

- الأستاذ محمد عبد الحليم بَعَّاج .

- والأستاذ محمد خلوف العبدالله .

جزاهما الله خير الجزاء ، وأثابهما جميل العطاء ، آمين .

هذا وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم ، والحمدُ

لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

حَرَّرَهُ
نُورُ الدِّينِ طَالِبُ الْيَقِينِ

عَفَّرَ اللَّهُ لَهُ . آمِينَ

دِمَشْق - دُومَة

٩ جمادى الآخر - ١٤٣١ هـ



= ويستغرق من الوقت والجهد أضعافَ أضعافٍ ما يستغرق التأليف ، لاسيما إذا رُزق المحقق بنسخة كهذه النسخة التي استغرقتُ في قراءة شيء منها جهداً ووقتاً طويلاً ، هذا بالإضافة إلى أعمال آخر يقوم بها المحقق ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ، انتهى .

قلت : فتأمل ذلك .

الفصل الأول
ترجمة القاضي
أبي يعلى الفراء

الفصل الأول
ترجمة القاضي
أبي يعلى الفراء (*)

هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء، أبو يعلى .

كان عالم زمانه، وفريد عصره، ونسيج وحده، وقريع دهره، وكان

(*) نقلاً عن «طبقات الحنابلة» لابنه أبي الحسين (٣ / ٣٦١)؛ فإنه من أحسن من ترجم له - رحمه الله - .

وانظر مزيد مصادر عن ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢ / ١٥٦)، و«تاريخ الإسلام» (٣٠ / ٤٥٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٨٩)، و«العبر في خبر من غبر» ثلاثتها للذهبي (٣ / ٢٤٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٢ / ٤٦)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٥ / ٧٨)، و«المقصد الأرشد» لابن مفلح (٢ / ٣٩٥)، و«المنهج الأحمد» للعلّيمي (٢ / ٣٥٤)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣ / ٢٠٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١ / ٣)، ٤٢٤، ٥٦٤، (٢ / ١٤١٦، ١٤٢١، وغيرها)، و«الأعلام» للزركلي (٦ / ٩٩)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (٩ / ٢٥٤)، و«معجم مصنفات الحنابلة» للطريقي (٢ / ٣٧) .

وانظر: «القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه: الأحكام السلطانية» للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس .

له في الأصول والفروع القدمُ العالي، وفي شرف الدين والدنيا المحلُّ السامي، والخطرُ الرفيع عند الإمامين: القادر، والقائم ﷺ.

وأصحابُ الإمام أحمد - رحمه الله - له يتبعون، ولتصانيفه يدرسون ويدرسون، وبقولهِ يُفتون، وعليه يعوّلون، والفقهاء - على اختلاف مذاهبهم وأصولهم - كانوا عنده يجتمعون، ولمقاله يسمعون ويطيعون، وبه ينتفعون، وبالاتِّمام به يقتدون.

وقد شُهِد له من الحال ما يغني عن المقال، لا سيما مذهب إمامنا أبي عبد الله أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل، واختلاف الروايات عنه، وما صح لديه منه، مع معرفته بالقرآن وعلومه، والحديث والفتاوى والجدل، وغير ذلك من العلوم، مع الزهد والورع، والعفة والقناعة، وانقطاعه عن الدنيا وأهلها، واشتغاله بسطر العلم وبثّه، وإذاعته ونشره.

وكان والده أبو عبد الله أحدَ شهود الحضرة بمدينة السلام، حضر عنده في داره محمد بنُ صبر قاضي الإمام الطائع لله، فشهد عنده في خلافة الطائع لله، ولم نسمع أن أحداً قصده من يشهد بين يديه، فشهد عنده في دار سواه، ولم يكن يومئذ قاضي قضاة، وكان ابنُ معروف معزولاً، وقد أُلِّه ابنُ صبر لقضاء القضاة، وقد شُهِد ذلك في درج بخط ابن حاجب النعمان، لما ذكر شهودَ بابِ الطاق.

وكان جدي أبو عبد الله قد درس على أبي بكر الرازي مذهب أبي حنيفة، وغير خافٍ محلُّ أبي بكر الرازي، وأن المطيع لله، ومعز الدولة خاطباه ليلي قضاء القضاة، فامتنع، وكان محلُّ جدي أبي عبد الله منه أنه

مرض مئة يوم، فعاده أبو بكر الرازي خمسين يوماً، يعبرُ إليه من الجانب الغربي بالكَرْخ، من دربِ عبدةٍ إلى باب الطاق بالجانب الشرقي، فلما عوفي، وحضر عنده في مجلسه، قال له أبو بكر الرازي: يا أبا عبدالله! مرضت مئة يوم، فعدناك خمسين يوماً، وذاك قليل في حقك.

وتوفي في سنة تسعين وثلاث مئة. وكان سن الوالد في ذلك الوقت عشرَ سنين إلا أياماً. وكان وصيّه رجلاً يعرف بـ «الحربي» يسكن بدار القَزْ، فنقل الوالد السعيد من باب الطاق إلى شارع دار القَزْ، وفيه مسجد يصلي فيه شيخ صالح، يعرف بـ «ابن مقدحة» المقرئ، يقرئ القرآن، ويلقن من يقرأ عليه العبارات من «مختصر الخرقى»، فلقن الوالد السعيد ما جرت عادته بتلقيه من العبادات، فاستزاده الوالد السعيد، فقال له ذلك الشيخ: هذا القدر الذي أحسنه، فإن أردت زيادة عليه، فعليك بالشيخ أبي عبدالله بن حامد؛ فإنه شيخ هذه الطائفة؛ ومسجده بباب الشعر، فمضى الوالد إليه، وصحبه إلى أن توفي ابنُ حامد في سنة ثلاث وأربع مئة، وتفقه عليه، وبرع في ذلك، وكان ذلك من لطف الله تعالى به، وإرادته تعالى حفظَ هذا المذهب.

وقد ذكرنا في «أخبار ابن حامد» سؤالَ محمد بن علي المقرئ له عند خروجه إلى الحج سنة اثنتين وأربع مئة: على من ندرس؟ وإلى من نجلس؟ فقال له: إلى هذا الفتى، وأشار إلى القاضي أبي يعلى. وقد كان لابن حامد أصحابٌ كثرٌ، فتفرّس في الوالد السعيد ما أظهره الله - تبارك وتعالى - عليه، روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا

فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ﷻ .

* فأما مولده : فولد لتسع وعشرين ، أو ثمان وعشرين ليلةً خلت من المحرم سنة ثمانين وثلاث مئة .

* وأما شيوخه : فأول سماعه للحديث سنة خمس وثمانين وثلاث مئة ، وسمع من أبي الحسين السَّكَّري ، عن أحمد بن عبد الجبار الصوفي ، عن يحيى بن معين ، وغيره .

وسمع - أيضاً - من جماعة عن البغوي ، وقد حدَّث عن البغوي عن أحمد بن حنبل .

وسمع من أبي القاسم موسى بن عيسى السراج ، عن البغوي ، وغيره .

ومن أبي الحسن عليّ بن معروف ، عن البغوي ، وابن صاعد ، وابن أبي داود ، وغيرهم .

ومن أبي القاسم بن حبابة ، عن البغوي ، عن عليّ بن الجَعْد ، عن شعبة ، وغيره .

ومن أبي الطيب بن المنتاب ، عن البغوي ، وابن صاعد ، وغيرهما .

ومن أبي طاهر المخلص عن البغوي ، وابن صاعد ، وغيرهم .

ومن أبي القاسم عيسى بن علي الوزير ، عن البغوي ، وغيره .

ومن أبي القاسم بن سويد ، عن ابن مجاهد ، وابن الأنباري ، وغيرهما .

ومن أبي القاسم الصيدلاني، عن ابن صاعد، وغيره. ومن أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل، ومن جدّه لأمه أبي القاسم بن جنيقا، ومن أبي عبدالله، عن أبي بكر محمد بن إسحاق بن عبد الرحيم السوسّي، وغيره، ومن أبي محمد عبدالله بن أحمد بن مالك البيع بانتقاء ابن أبي الفوارس، ومن القاضي أبي محمد الأكفاني، ومن نصر بن الشاه، ومن أبي عبدالله النيسابوري، ومن أبي الحسن الحمامي، ومن أبي الفتح ابن أبي الفوارس.

وسمع بمكة، ودمشق، وحلب في آخرين.

وابتدأ بالتصنيف والتدريس بعد وفاة شيخه ابن حامد، وحج سنة أربع عشرة وأربع مئة، وعاد إلى تدريسه وتصنيفه في الفروع والأصول والآداب، وانقطاعه عن الدنيا، وما يؤول إلى الذهاب.

ومن بحث عن أخلاقه وطرائقه وأخباره، لم يخف عليه موضعه ومحله، ولو بالغنا في وصفه، لكننا إلى التقصير فيما نذكره من ذلك أقرب؛ إذ انتشر على لسان الخطير والحقير ذكر فضله، سوى ما يضاف إلى ذلك من الجلالة والصبر على المكاره، واحتماله لكل جريرة إن لحقته من عدو، وزلل إن جرى من صديق، وتعطفه بالإحسان على الكبير والصغير، واصطناع المعروف إلى الداني والقاصي، ومداراته للنظير والتابع، جارياً على سنن الإمام أحمد رحمه الله حذو القذة بالقذة.

ولم يزل على طول الزمان يزداد جلاله ونبلاً، وعلماً وفضلاً، قصده

القاضي الشريف أبو علي بن أبي موسى دفعات، إحداها: في جمادى الأولى سنة إحدى - أو اثنتين - وعشرين وأربع مئة؛ ليشهد عند قاضي القضاة أبي عبدالله بن ماکولا، ويكون ولد القاضي أبي علي أبو القاسم - الملقب بـ «زين الدين» - له تابعاً، ومتبركاً بشهادته، فأبى عليه الوالد السعيد أشدَّ الإباء، فمضى ابن أبي موسى إلى أبي القاسم بن بشران، وسأله أن يشهد مع ولده، وقد كان ابن بشران قد ترك الشهادة قبل ذلك، فأجابه إلى ذلك، فشهد ابن بشران، ومعه زين الدين بديوان الخلافة، وكانت وفاة القادر بالله في حادي عشر من ذي الحجة من هذه السنة، ثم توفي القاضي أبو علي سنة ثمان وعشرين.

وكان من قضاء الله وقدره أن تكررت سؤالات قاضي القضاة أبي عبدالله بن ماکولا للشيخين أبي منصور بن يوسف، وأبي علي بن جرادة، يسألان الوالد السعيد أن يشهد عنده؛ لعلمه بمحبتهما له، واعتقادهما بمذهبه، وانضاف إلى ذلك خطابُ رئيس الرؤساء نوبةً بعد أخرى، فأجاب إلى ذلك، وشهد عنده، مع كراهته للشهادة، وكان ابن ماکولا معظماً له، ومبجلاً ومكرماً، ما لم يكن يفعله لغيره، وكان قد حضر الوالد السعيد - قدس الله روحه - في سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة في دار الخلافة في أيام القائم بأمر الله - رضوان الله عليه - مع الحُجَم الغفير، والعدد الكثير من أهل العلم، وكان صحبته الشيخ الزاهد أبو الحسن القزويني؛ لفساد قولٍ جرى من المخالفين لما شاع قراءة كتاب «إبطال التأويلات»، فخرج إلى الوالد السعيد من الإمام القائم بأمر - الله رضوان الله عليهم - الاعتقاد

القادري في ذلك بما يعتقد الوالد السعيد، وكان قبل ذلك قد التمس منه حمل كتاب «إبطال التأويلات» ليتأمل، فأعيد إلى الوالد، وشكر له تصنيفه، وذكر بعض أصحاب الوالد السعيد: أنه كان حاضراً في ذلك اليوم، قال: رأيت قارئ التوقيع الخارج من القائم بأمر الله - رضوان الله عليه - قائماً على قدميه، والموافق والمخالف بين يديه، ثم أخذت في تلك الصحيفة خطوط الحاضرين من أهل العلم، والفقهاء على اختلاف مذاهبهم، وجعلت كالشرط المشروط، فأول من كتب: الشيخ الزاهد القزويني: هذا قول أهل السنة، وهو اعتقادي، وعليه اعتمادي، ثم كتب الوالد السعيد بعده، وكتب القاضي أبو الطيب الطبري، وأعيان الفقهاء، من بين موافق ومخالف، فبلغني أن أبا القاسم عبد القادر بن يوسف قال - بعد خروجه عن ذلك المجلس -: روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فلما أرادوا النهوض من ذلك المجلس، التفت ابن القزويني الزاهد إلى الوالد السعيد، فقال له: كما في نفسك؟ فقال له الوالد السعيد: الحمد لله على ما تفضل به من إظهار الحق، فقال له ابن القزويني الزاهد: لا أقنع بهذا، وأنا أحضر بجامع المنصور، وأملئ أحاديث الصفات، فحضر القزويني الزاهد جمعاً مترادفات بجامع المنصور، أملئ أخبار الصفات، ناصراً لما سطره الوالد السعيد، ثم توفي ابن القزويني ليلة الأحد، الخامس من شعبان، سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة، وصُلِّي عليه بين الحربية والعتابين، مما يلي الخندق، وحضره عالم كثير.

وجرى تشغيب بين أصحابنا وبين المخالفين لنا في الفروع، فحضر
الوالد السعيد سنة خمس وأربعين في دار الخلافة مجلس أبي القاسم عليّ
ابن الحسن رئيس الرؤساء، ومعه جَمٌّ غفير، وعدد كثير من شيوخ الفقهاء،
وأماثل أهل الدين والدنيا، فقال رئيس الرؤساء - في ذلك اليوم على
رؤوس الأشهاد -: القرآن كلام الله، وأخبار الصفات تُمرُّ كما جاءت،
وأصلح بين الفريقين، ففاز الوالد السعيد بخير الدارين - إن شاء الله -،
ولو تتبعنا هذه المقامات، لطالت الحكايات.

وكان من قضاء الله تعالى أن توفي قاضي القضاة ابنُ ماكولا، فتيين
للإمام القائم بأمر الله احتياج الحریم إلى قاض عالم زاهد، فراسل رئيس
الرؤساء بالشيخ أبي منصور بن يوسف وبغيره إلى الوالد السعيد، وخطب
ليلي القضاء بدار الخلافة والحریم أجمع، فامتنع من ذلك، فكرر عليه
السؤال، فلما لم يجد بداً من ذلك، اشترط عليهم شرائط، منها: أنه
لا يحضر أيام المواكب الشريفة، ولا يخرج في الاستقبالات، ولا يقصد
دار السلطان، وفي كل شهر يقصد نهر المعلى يوماً، وباب الأزج يوماً،
ويستخلف من ينوب عنه في الحریم، فأجيب إلى ذلك.

وقد كان ترشح لولاية القضاء بالحریم القاضي أبو الطيب الطبري،
فعدّل عنه إلى الوالد السعيد، وقُدِّ القضاء في الدماء والفروج والأموال،
ثم أُضيف إلى ولايته بالحریم: قضاء حران وحلوان.

واستتاب فيهما، فأحيا الله بالوالد السعيد من صناعة القضاء ما أُميت
من رسومها، ونشَرَ ما طوي من أعلامها، فعاد الحكم بموضعه جديداً،

والقضاء بتدبيره رشيداً، وكان كما قال فيه تلميذه عليُّ بنُ نصرِ العكبريِّ
لما وليَ الوالدُ القضاءَ :

رَفَعَ اللهُ رَايَةَ الْإِسْلَامِ
حِينَ رُدَّتْ إِلَى الْأَجَلِّ الْإِمَامِ
التَّقِيِّ النَّقِيِّ ذِي الْمَنْطِقِ الصَّامِ
ئِبِّ فِي كُلِّ حُجَّةٍ وَكَلَامِ
خَائِفٍ مُشْفِقٍ إِذَا حَضَرَ الْخَصْمُ
مَنْ يَخْشَى مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الْخِصَامِ
لَمْ يَزِدْهُ الْقَضَاءُ فَخْرًا، وَلَكِنْ
قَدْ كَسَا الْفَخْرَ سَائِرَ الْأَحْكَامِ
بِكَ يَا بْنَ الْحُسَيْنِ شَدَّتْ عُرَى الدَّيِّمِ
— وَقَامَتْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ
رَحْمَةً مِنْ مُدَبِّرِ الْخَلْقِ لِلْخَلْأِ
— قِيَّ أَظَلَّتْ إِذْ قُمْتَ فِي ذَا الْمَقَامِ
تَمَّمَ اللهُ لِلْخَلِيفَةِ مَا أَعُوذُ
— طَاهُ مِنْ نِعْمَةٍ مَدَى الْأَيَّامِ
فَلَقَدْ قَلَّدَ الْقَضَاءَ رَفِيعُ الْ—
— قَدَرٍ ذَا رَأْفَةٍ عَلَى الْأَيَّامِ

قَدْ حَوَى مِنْ رِعَايَةِ الدِّينِ مَا
يَغْصِمُهُ مِنْ مَوَاقِفِ الْأَثَامِ
وَصَلَّ اللَّهُ مَا حَبَّاهُ مِنَ النَّعْمِ

—مَا بِنُعْمَاهُ فِي جَنَانِ الْمُقَامِ—
فلم يزل جارياً على سديد القضاء، وإنفاذ الحكم والأوصياء، إلى
أن توفي .

وكان الوالد السعيد قد رد القضاء بباب الأزج إلى الجيلي، وجعل
صاحبه أبا علي يعقوب مشرفاً عليه، فلما تبين له من حال الجيلي
الاختلال، عزله، ثم ردَّ النظر في عقد الأنكحة والمداينات بباب الأزج
إلى تلميذه أبي علي يعقوب، واستتاب أبا عبدالله بن البقال في النظر في
العقار بباب الأزج، واستتاب بدار الخلافة ونهر المعلى أبا الحسن السبيي،
ولو ذهبتُ أشرح قضاياها السديدة، لكانت كتاباً قائماً بنفسه .

ومعلومٌ ما خَصَّصَ اللهُ سبحانه به هذا الوالد السعيد من النعم
الدينية، والرتب السامية العلية، وكونه إمامَ وقته، وفريدَ دهره، وقرِيعَ
عصره، لا يعرف في شرق الأرض وغربها شخصٌ يتقدم في علم مذهبه
عليه، أو يضاف في ذلك إليه، هذا مع تقدمه في هذه البلدة على فقهاء
زمانه بقراءته للقرآن بالقراءات العشر، وكثرة سماعه للحديث، وعلو إسناده
في المرويات، ولقد حضر الناس مجلسه، وهو يملي حديث رسول الله ﷺ
بعد صلاة الجمعة بجامع المنصور على كرسي عبدالله بن إمامنا أحمد

- رحمه الله -، وكان المبلِّغون عنه في حَلَقته، والمستملون ثلاثة؛ أحدهم: خالي أبو محمد، والثاني: أبو منصور بن الأنباري، والثالث: أبو علي البرداني.

وأخبرني جماعة ممن شهد الإملاء: أنهم سجدوا في حلقة الإملاء على ظهور الناس؛ لكثرة الزحام في صلاة الجمعة، في حلقة الإملاء. وما رأى الناس في زمانهم مجلساً للحديث اجتمع فيه ذلك الجَمُّ الغفير، والعدد الكثير.

وسمعت من يذكر أنه حزر العدد بالألوف، وذلك مع نباهة مَنْ حضر من الأعيان، وأمائل الزمان، من النقباء، وقاضي القضاة، والشهود، والفقهاء، وكان يوماً مشهوداً، والناس إذ ذاك يسمعون، والكتبة يكتبون، وبالنظر إليه يتبركون، وبفضله يُقرون ويشهدون، وحضرت أنا أكثرَ أماليه بجامع المنصور، وأجاز لي إجازةً، ولأخي أبي حازم - حفظه الله -، سأله الإجازة لنا خالناً أبو محمد بن جابر، فأجاز لنا في مرضه لفظاً.

حدثنا الوالد السعيد إملاءً من لفظه وأصله يوم الجمعة بعد الصلاة، بجامع المنصور، في التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وخمسين وأربع مئة، قال: حدثنا أبو الحسين ابن أخي ميمي، قال: حدثنا عبدالله ابن محمد بن عبد العزيز البغوي، قال: حدثنا أبو روح محمد بن زياد بن فروة البلدي، قال: حدثنا أبو شهاب، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنًا، كَمَا تَرُونَ

هَذَا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ
 طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَقَرَأْ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
 وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [لق: ٣٩]. قال لنا الوالد السعيد: هذا الحديث صحيح،
 أخرجه البخاري عن يوسف بن موسى، عن عاصم بن يوسف اليربوعي،
 عن ابن شهاب، وكأنني سمعته من البخاري.

وقد امتدح بعض أهل العلم الوالد السعيد بأبيات، منها:

الْحَبِيلِيُّونَ قَوْمٌ لَا شَبِيهَ لَهُمْ

فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى إِذَا ذُكِرُوا

أَحْكَامُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ مُذْ خُلِقُوا

وَبِالْحَدِيثِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ

إِنَّ الْإِمَامَ أَبَا يَعْلَى فَمِنْهُمْ

حَبْرٌ عَرُوفٌ بِمَا يَأْتِي وَمَا يَذُرُ

صِلْ فَاقْتَدِرْ، فَلَكَ الْمَسْطُورُ إِنْ فَخَرُوا

مَا نَائِمٌ مِثْلُ يَقْظَانٍ بِهِ سَهْرُ

ومعلوم ما كان عليه شيوخ عصره، وعلماء وقته، من بين موافق
 ومخالف من توقييرهم له في حداثة سنه، وسالف دهره، وأنه كان إذ ذاك
 معدوداً من الأماثل والأعيان، وشيوخ العلماء وذوي الأسنان، الذين قد
 شَحَّ بهم الزمان، وذلك عند معرفتهم بعلمه وديانته، وتقدمه في النظر

والتحقيق، وتخصصه بسلوك أحسن طريق، وإنما يعرف الفضل لأهله
مَنْ كان في نفسه فاضلاً، وَيَشْهَد بالعقل لأهله مَنْ كان في نفسه عاقلاً،
وقد قيل : نقاد الجوهر أشدُّ عوزاً من الجوهر .

كان الوالد السعيد متميزاً بالزهادة على كافة أهل العلم قلماً، ونقل
في طلبه قدماً، كما قال عمر لسلمان - عليه السلام - حين دون الدواوين :
مع من تريد أن أكتبك؟ قال : مع الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا﴾ [القصص : ٨٣] .

كان في قناعته كما قال أبو حمزة الصوفي : كنت إذا أصابني فاقة،
قلت في نفسي : إلى من أهدي هذه الفاقة؟ ثم فكرت، فلم أجد أحقَّ بها
مني، فطويتها، والآيات مشهورة في المعنى :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ الْمَالَ مُنْفَقًا
عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الْإِقْرَاضَ مِنْ كَيْسٍ صَبْرَهَا
عَلَيْكَ وَإِنْظَاراً إِلَى زَمَنِ الْيُسْرِ
فَإِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الْغَنِيِّ، وَإِنْ أَبْتَ

فَكُلُّ مَنْعٍ عِنْدَهَا وَاسِعُ الْعُذْرِ
وقال : كتب أبو نصر عبيد الله بن سعيد السجزي الحافظ من مكة
- حماها الله - كتاباً ذكر فيه أبياتاً جواباً عن كتابه، فقال :

كِتَابُكَ سَيِّدِي لَمَّا أَتَانِي
 سُرِرْتُ بِهِ، وَجَدَدَ لِي ابْتِهَاجًا
 وَذِكْرُكَ بِالْجَمِيلِ لَنَا جَمِيلٌ
 يُقَلِّدُنَا وَلَمْ نَمَزِجْ مِزَاجًا
 جَلَلْتَ عَنِ التَّصْنُوعِ فِي وَدَادٍ
 فَلَمْ نَرَفِ فِي تَوَدُّدِكَ اعْوِجَاجًا
 وَقَدْ كَثُرَ الْمُدَاجِي وَالْمُرَائِي
 فَلَا تَخْفَلْ بِمَنْ رَأَى وَدَاجَى
 حَيْثَ مُعَمَّرًا وَجُزِئْتَ خَيْرًا
 وَعِشْتَ لِذِي التَّقْوَى سِرَاجًا

وناهيك بأبي نصر السجزي، مع علمه ودينه وزهده!
 ولعمري! لقد حاز الوالد السعيد من الفضل ما عسى أن يعجز عنه
 كثير من الأقران، وعدد من ذوي الأسنان؛ من ضبط العلوم بحسن بصيرة
 وإتقان، وتدقيق في الكشف عن غوامض المذهب وخافيه، والبيان عن
 معانيه، وهو - مع ذلك إلى حين وفاته، مع كبر السن - مجتهدٌ دائم،
 على التصنيف والتدريس مواظب، ثم إصغاه مع هذا العلم الكثير، إلى
 كلمة تستفاد من صغير أو كبير، ولو قصد قاصد تعداد كتبه ومصنفاته،
 وتأمل ما قرره من الأدلة على غوامض مذهبه ومسائل مفرداته، لعسى أن
 تلحقه السامة في حسابه، والمشقة في استيعابه.

ولو اقتصر من يقصد العدل والإنصاف، على النظر في كتابه الذي صنفه في مسائل الخلاف؛ لدله على منزلته من العلم دليلٌ كافٍ.

ومعلومٌ ما خصه الله تعالى به - مع موهبة العلم والديانة - من عزِّ التعفف والصيانة، والمروءة الظاهرة، والمحاسن الكثيرة الوافرة، مع هجرانه أبواب السلاطين، وامتناعه - على ممر السنين - أن يقبل لأحد منهم صلةً وعطيةً، ولم تزل ديانته ومروءته لما هذا سبيلُهُ آيةً.

وكان يقسم ليله كله أقساماً؛ فقسم للمنام، وقسم للقيام، وقسم لتصنيف الحلال والحرام.

ولقد نزل به ما نزل بغيره من النكبات، التي استكان لها كثير من ذوي المروءات، وخروجٌ عن مألوفات العادات، فلم يحفظ عليه أنه خرج عن جميل عاداته، ولا طرح المألوف من مروءته، ومن شاهد ما كان عليه من السكينة والوقار، وما كسا الله وجهه من الأنوار، مع السكون والسمت الصالح، والعقل الغزير الراجح، شهد له بالدين والفضل ضرورة، واستدل بذلك على محاسنه الخفية المستورة، هذا مع الأناة والحلم، الذي به يزان العلم، وحمله الأذى في جنب الإيمان، والتصديق بالأحاديث التي هي عن صاحب الشريعة ﷺ مروية، وكم قصده من أعداء المروءة والدين من قاصدٍ باغٍ، ومبتدعٍ طاغٍ، جامعٍ في إزعاجه، ومنفرٍ عن منهاجه، فعاد خاسئاً ذليلاً، وبحسرة الظفر قتيلاً؛ ﴿سُتَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقد أنشد بعض الشعراء في مثله:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعَبَانٍ مِنْ لَبَنِ

شَيْبَا بِمَاءٍ، فَعَادَا بَعْدُ أَبَوَالَا

* فأما عدد أصحابه، الذين سمعوا منه الحديث: فالعدد الكثير، والجم الغفير، منهم: أحمد بن علي بن ثابت، وعبد العزيز العاصمي النخشي، وعمر بن أبي الحسن الدهستاني الخياط، وهبة الله بن عبد الوارث الشيرازي، وإسحاق بن عبد الوهاب بن مندة الحافظ المقرئ، ومكي بن بجير الهمداني، وعمر الأرموي، وأحمد بن الحسن بن خيرون، وابنا خاله؛ أبو طاهر، وأبو غالب، وأبو الحسين بن الطيوري، وأبو علي البراداني، وأبو الغنائم بن النرسي الكوفي، وأبو بكر القطان المقدسي، وأبو منصور الخياط، وأبو منصور القرميسيني، وأبو منصور بن الأنباري، ومحمد بن عمارة العكبري، ومحمد بن أحمد بن أحمد بن مردين، وأبو العباس المخلطي، وأحمد بن العلي، وأبو بكر وأبو الحسين ابنا ابن يوسف، وابنا عمهما: أبو محمد، وأبو الحسن بن رضوان، وابنا عمه: أبو نصر، وأبو الحسين، وأبو جعفر الأصبهاني، وأبو الكرم المبارك بن فاخر النحوي، وأخوه أبو عبدالله بن الدباس، وأبو طاهر وأبو القاسم ابنا البلدي، وأبو نصر ياسر وأبو العز العكبريان، في آخرين.

* فأما الذين تفقهوا وعقلوا، وسمعوا الحديث: فأبو الحسن البغدادي، والشريف أبو جعفر، وأبو الغنائم بن الغباري، وأبو الغنائم بن زبيبا، وأبو علي بن البناء، وأبو الوفاء بن القواس، والقاضي أبو علي

البرزييني، والقاضي أبو الفتح بن جلبة، وعلي بن عمرو الضرير الحراني، وأبو ياسر بن الحصري، وأبو عبدالله الأنماطي، والحسين البرداني، وأبو الحسن النهري، وأبو البركات بن شبلي، وأبو محمد شافع، وأبو الوفاء ابن عقيل، وطلحة العاقولي، ومحفوظ الكلوذاني، وأبو الحسن بن جدا العكبري، وأبو الفرج المقدسي، وأبو الحسن بن زفر العكبري، وأبو عبدالله الرذاني، وأبو الحسن بن الركاب، وأبو عبدالله الباجسرائي، وأبو يعلى بن الكيال، وجعفر الدرزيجاني، والأخ أبو القاسم، وغيرهم ممن يشق إحصاء أسمائهم.

* فأما عدد مصنفاته فكثيرة، فنشير إلى ذكر ما يتيسر منها؛ فمن ذلك: «أحكام القرآن»، و«نقل القرآن»، و«إيضاح البيان»، و«مسائل الإيمان»، و«المعتمد»، و«مختصر المعتمد»، و«المقتبس»، و«مختصر المقتبس»، و«عيون المسائل»، و«الرد على الأشعرية»، و«الرد على الكرامية»، و«الرد على الباطنية»، و«الرد على المجسمة»، و«الرد على ابن اللبان»، و«إبطال التأويلات لأخبار الصفات»، و«مختصر إبطال التأويلات»، و«الانتصار لشيخنا أبي بكر»، و«الكلام في الاستواء»، و«الكلام في حروف المعجم»، و«القطع على خلود الكفار في النار»، و«أربع مقدمات في أصول الديانات»، و«إثبات إمامة الخلفاء الأربعة»، و«تبرئة معاوية»، و«الرسالة إلى إمام الوقت»، و«جواب مسائل وردت من الحرم»، و«جوابات مسائل وردت من تنيس»، و«جوابات مسائل وردت من ميفارقين»، و«جوابات مسائل وردت من أصبهان»، و«العدة

في أصول الفقه»، و«مختصر العدة»، و«الكفاية في أصول الفقه»،
و«مختصر الكفاية»، و«الأحكام السلطانية»، و«فضائل أحمد»، و«مختصر
في الصيام»، و«إيجاب الصيام ليلة الإغمام»، و«مقدمة في الأدب»،
و«كتاب الطب»، و«كتاب اللباس»، و«الأمر بالمعروف»، و«شروط أهل
الذمة»، و«التوكل»، و«ذم الغناء»، و«الاختلاف في الذبيح»، و«تفضيل
الفقر على الغنى»، و«فضل ليلة الجمعة على ليلة القدر»، و«تكذيب
الخيابة فيما يدعونه من إسقاط الحرية»، و«إبطال الحيل»، و«الفرق بين
الآل والأهل»، و«المجرد في المذهب»، و«شرح الخرقى»، و«كتاب
الروايتين»، و«قطعة من الجامع الكبير»، فيها: الطهارة، وبعض الصلاة،
والنكاح، والصداق، والخلع، والوليمة، والطلاق، و«الجامع الصغير»،
و«شرح المذهب»، و«الخصال والأقسام»، وفيه يقول بعضهم:

قَدْ نَظَرْنَا مُصَنَّفَاتِ الْأَنَامِ

وَسَبَرْنَا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ

مَا رَأَيْنَا مُصَنَّفًا يَجْمَعُ الْعِلْمَ

— مَعَ الْاِخْتِصَارِ وَالْإِفْهَامِ

مِثْلَ مَا صَنَّفَ الْإِمَامُ أَبُو يَعْنَى

— لِي كِتَابِ الْخِصَالِ وَالْأَقْسَامِ

ومن مصنفاته: «الخلاف الكبير».

ومن نظر في تصانيفه حقيقة النظر، علم أن ما وراءه مراماً ولا مقالاً،

إلا ما يدخل على البشر من التقصير عن الكمال، ويخرج به العالم عن منازل الأنبياء، ويتميز به المتأخر عن مراتب أهل التقدم من العلماء، فلقد حمل الناس عنه علماً واسعاً من حديث رسول الله ﷺ، ومن الأصول والفروع، وهو مستغنٍ باشتهار فضله عن الإطناب في وصفه؛ لأننا رأينا البلغاء قد وصفوا فقصروا، والعلماء قد مدحوا فأكثروا، وكلٌ يطلب أمده، فيعجزون؛ إذ كان الله ﷻ قد رزقه حفظ القرآن، والقراءة بالعشر، والعلم بالحلال والحرام، والأحكام والفرائض، وعلم الأصول والفروع، ورزقه من شرف الأخلاق، وكرم الأعراق، والمجد المؤثل، والرأي المحصل، والفضل والفهم، والإصابة والعزيمة الصافية، والمعرفة الشافية، والتفرد بكل فضيلة، والسمو إلى درجة رفيعة، من محمود الخصال، والزهد والكمال، ما يطول شرحه، حتى لم يكن له شبهة في وقته، ولا نظير في فهمه، ولا مجارٍ في حكمه، ولم تقع أبصارُ أهل زمانه على مثله؛ لأن طينته حرة، وعرقه كريم، وغرسه طيب، ومنشأه محمود، وكانت أفعاله كأخلاقه، وأخلاقه كأعراقه، وأوله كآخره، لا يمتنع عليه معرفة المبهم الغامض من الأمور، ولا يتلجلج اشتباهُ المشكل الصعب في الصدور، ولا يعرف الشك ولا العي، ولا الحصر عند مناظرة المخالفين والموافقين، ومجادلة المتكلمين، وسائر الفقهاء المختلفين.

ولقد كان يحضر مجلس أبي جعفر السمناني في منزله، ويحضره شيوخ الفقهاء والمتكلمين المتأينين في الأصول والفروع، فتحضر صلاة الظهر والعصر، فيتأخر الكل، ويأتمون بصلاته.

* فلنذكر الآن تبين منهج السلف ، وما أمروا بأدائه إلى الخلف ، وهو الذي درج عليه الوالد السعيد - قدس الله روحه وأرواحهم - لبعضهم بمعونة الله ، ونجتنب ما ذم أهل البدع بسببه ، راجين بذكره جزيل الثواب ، متوقّين الخروج عن الصواب ، بعد تعريفك ما عسى أن تلقاه من ذوي الخلاف والعناد ، من الأذى إذا تحققوا معرفتك ، لما هم عليه من الفساد ، والمحق مأمور بالصبر لينال به جزيل الأجر ، وقدمناه أولاً في نكتتين ، من أتقنهما ولزمهما ، أدرك سعادة الدارين ، وما نذكره بعدهما إنما نريد به شرحهما .

إحداهما : ترك ما تراه لما أمرت به ، مع تبين الأمر المتمسك بموجبه .

والثانية : قلة الاكتراث بكثرة المبطلين ، وتهجينهم ما درج عليه الوالد السعيد ، والسلف الصالح الرشيد ، مع سخاء النفس عما قالوه من قبول عند أمثالهم ، ووصول إلى بعض آمالهم ، فإذا ألزمت نفسك الأخذ بهاتين النكتتين ، عوّضت عما تركت ، سكوناً إلى ما عرفت ، والثقة بنبيّل ما به وعدت ، وهابك مخالفتك وإن كنت وحيداً ، وكنت عند الله - سبحانه وتعالى - ، ثم عند صالح عبيده حميداً .

* فلنذكر الآن البيان عن اعتقاد الوالد السعيد ، ومن قبله من السلف الحميد ، في أخبار الصفات :

فاعلم - زادنا الله وإياك علماً ينفعنا الله به ، وجعلنا ممن أثر الآيات الصريحة ، والأحاديث الصحيحة على آراء المتكلمين ، وأهواء المتكلفين - :

أن الذي درج عليه صالحو السلف، وانتهجه بعدهم خيارُ الخلف هو: التمسكُ بكتاب الله ﷻ، واتباعُ نبيه محمد ﷺ، ثم ما رُوي عن الصحابة -رضوان الله عليهم-، ثم عن التابعين، والخالفين لهم من علماء المسلمين، والإيمانُ والتصديق بما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله، مع ترك البحث والتنقير، والتسليمُ لذلك، من غير تعطيل، ولا تشبيه، ولا تفسير، ولا تأويل، وهي الفرقة الناجية، والجماعة العادلة، والطائفة المنصورة إلى يوم القيامة، فهم أصحابُ الحديث والأثر -والوالد السعيد تابعُهم-، هم خلفاءُ الرسول، وورثةُ حكمه، وسَفَرَتُهُ بينه وبين أمته، بهم يلحق التالي، وإليهم يرجع العالي، وهم الذين نزههم أهلُ البدع والضلال، وقائلو الزور والمحال: أنهم مُشَبَّهةٌ جُهَّال، ونسبواهم إلى الحشو والطغام، وأسأؤوا فيهم الكلام.

فاعتقد الوالدُ السعيد وسلفه -قدس الله أرواحهم، وجعل ذكرنا لهم بركةً تعود علينا- في جميع ما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ: أن جميعَ ذلك صفاتُ الله ﷻ تَمَرُّ كما جاءت، من غير زيادة ولا نقصان، وأقروا بالعجز عن إدراك معرفة حقيقة هذا الشأن، اعتقد الوالد السعيد ومن قبله ممن سلفه من الأئمة: أن إثبات صفات الباري -سبحانه- إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وكيفية لها حقيقة في علمه، لم يُطلع الباري سبحانه على كنه معرفتها أحداً من إنس ولا جان. واعتقدوا: أن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، ويحتذى حذوه ومثاله، وكما جاء.

وقد أجمع أهل القبله : أن إثبات الباري - سبحانه - إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وكيفية، هكذا اعتقد الوالد السعيد، ومن قبله ممن سلفه من الأئمة : أن إثبات الصفات للباري سبحانه إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وكيفية، وأنها صفات لا تشبه صفات البرية، ولا تدرك حقيقة علمها بالفكر والروية، والأصل الذي اعتمده في هذا الباب : اتباع قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧]، وقال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] . فاعتقدوا أن الباري - سبحانه وتعالى - فرّد الذات، متعدد الصفات، لا شبيه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا نظير ولا ثان، وسمعوا قوله ﷻ : ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبَاتِ﴾ [البقرة : ١ - ٣]، فآمنوا بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ؛ تسليمًا للقدرة، وتصديقًا للرسول، وإيمانًا بالغيب .

واعتقدوا : أن صفات الباري - سبحانه - معلومة من حيث أعلم هو، غيب من حيث انفرد واستأثر، كما أن الباري - سبحانه - معلوم من حيث هو، مجهول ما هو .

واعتقدوا : أن الباري - سبحانه - استأثر بعلم حقائق صفته ومعانيها عن العالمين، وفارق بها سائر الموصوفين، فهم بها مؤمنون، وبحقائقها موقنون، وبمعرفة كيفيتها جاهلون، لا يجوز عندهم ردها ؛ كرد الجهمية، ولا حملها على التشبيه ؛ كما حملته المشبهة الذين أثبتوا الكيفية، ولا تأولوها على اللغات والمجازات ؛ كما تأولتها الأشعرية .

فالحنبلية لا يقولون في أخبار الصفات بتعطيل المعطلين، ولا بتشبيه المشبهين، ولا بتأويل المتأولين، مذهبهم حق بين باطلين، وهُدًى بين ضالّتين؛ إثباتُ الأسماء والصفات، مع نفي التشبيه والأدوات؛ إذ لا مثل للخالق سبحانه فيشبهه، ولا نظير له فيجنس منه، فنقول كما سمعنا، ونشهد بما علمنا، من غير تشبيه ولا تجنيس، على أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي ردِّ أخبار الصفات، تكذيبُ النقلة، وإبطالُ شرائع الدين؛ من قبل أن الناقلين إلينا علم الصلاة والزكاة والحج، وسائر أحكام الشريعة، هم ناقلو هذه الأخبار، والعدلُ مقبولُ القول فيما قاله، ولو تطرق إليهم - والعياذ بالله - التخرصُ بشيء منها، لأدى ذلك إلى إبطال جميع ما نقلوه، وقد حفظ الله - سبحانه - الشرعَ عن مثل هذا.

وقد أجمع أهل الحديث - والأشعريةُ منهم - على قبول هذه الأحاديث، فمنهم من أمرّها على ما جاءت، وهم أصحابُ الحديث، ومنهم من تأوّلها، وهم الأشعرية، وتأويلهم إياها قبولُ منهم لها؛ إذ لو كانت عندهم باطلة، لا طَرَحوها، كما اطرَحوا سائر الأخبار الباطلة، وقد روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى خَطَاٍ وَلَا ضَلَالَةٍ».

وما ذكرناه من الإيمان بأخبار الصفات من غير تعطيل، ولا تشبيه ولا تفسير ولا تأويل، هو قول السلف بدءاً وعوداً، وهو الذي ذكره أمير المؤمنين القادر - رضوان الله عليه - في «الرسالة القادرية»، قال فيها: «وما وصف الله - سبحانه - به نفسه، أو وصفه به رسولُ الله ﷺ: فهو

صفاتُ الله ﷻ على حقيقته، لا على سبيل المجاز» .

وعلى هذا الاعتقاد جمعَ أميرُ المؤمنين القائمُ بأمر الله - رضوان الله عليه - مَنْ حضره مع الوالد السعيد من علماء الوقت، وزاهدَهم أبا الحسن القزوينيَّ سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة، وأخذ خطوطَهم باعتقاده .

وقد قال الوالد السعيد ﷺ في أخبار الصفات : المذهبُ في ذلك : قبولُ هذه الأحاديث على ما جاءت به، من غير عُدول عنه إلى تأويل يخالف ظاهرَها، مع الاعتقاد بأن الله سبحانه بخلاف كلِّ شيء سواه، وكلُّ ما يقع في الخواطر من حَدٍّ، أو تشبيه، أو تكييف، فالله - سبحانه وتعالى - . . . عن ذلك، والله ليس كمثله شيء، ولا يوصف بصفات المخلوقين الدالة على حدثهم، ولا يجوز عليه ما يجوز عليهم من التغير من حال إلى حال، ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عَرَض، وإنه لم يزل، ولا يزال، وإنه الذي لم يتصور في الأوهام، وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وأما كتابه - قدس الله روحه - في «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» فمبني على هذه المقدمات، وإن إطلاق ما ورد به السمع من الصفات لا يقتضي تشبيه الباري - سبحانه - بالمخلوقات . وذكر - رحمة الله عليه - كلاماً معناه : أن التشبيه إنما يلزم الحنبليَّة أن لو وُجد منهم أحدُ أمرين ؛ إما أن يكونوا هم الذين ابتدؤوا الصفة لله ﷻ واخترعوها، أو يكونوا قد صرحوا باعتقاد التشبيه في الأحاديث التي هم ناقلوها، فأما أن يكون صاحب الشريعة ﷺ هو المبتدئ بهذه الأحاديث، وقوله ﷺ حجة يسقط

بها ما يعارضها، وهم تبع له، ثم يكون الحنبلية قد صرحوا بأنهم يعتقدون إثبات الصفات، ونفي التشبيه، فكيف يجوز أن يضاف إليهم ما يعتقدون نفيه؟ وعلى أنه قد ثبت أن الحنبلية إنما يعتمدون في أصول الدين على كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، ونحن نجد في الكتاب والسنة ذكر الصفات، ولا نجد فيها ذكر التشبيه، فكيف يجوز أن يضاف إليهم ما يعتقدون نفيه؟

ومما يدل على أن تسليم الحنبلية لأخبار الصفات، من غير تأويل، ولا حمل على ما يقتضيه الشاهد أنه لا يلزمهم في ذلك التشبيه إجماع الطوائف - من بين موافق للسنة ومخالف - أن الباري سبحانه ذات وشيء وموجود، ثم لم يلزمنا وإياهم إثبات جسم، ولا جوهر، ولا عرض، وإن كان الذات في الشاهد لا تنفك عن هذه السمات، وهكذا يلزم الحنبلية ما يقتضيه العرف في الشاهد في أخبار الصفات.

يبين صحة هذا: أن الباري - سبحانه - موصوف بأنه حي، عالم، قادر، مريد، والخلق موصوفون بهذه الصفات، ولم يدل الاتفاق في هذه التسمية على اتفاق في حقائقها ومعانيها، هكذا القول في أخبار الصفات، ولا يلزم عند تسليمها - من غير تأويل - إثبات ما يقتضيه الحد والشاهد في معانيها، وبهذا ونظيره استدل الوالد السعيد - رحمة الله عليه - في كتابه «إبطال التأويلات لأخبار الصفات».

فأما الرد على المجسمة لله، فيردّه الوالد السعيد بكتاب، وذكره أيضاً في أثناء كتبه، فقال: لا يجوز أن يُسمّى اللهُ جسماً. قال أحمد: لا يوصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه.

قال الوالد السعيد : فمن اعتقد أن الله سبحانه جسمٌ من الأجسام ، وأعطاه حقيقة الجسم ، من التأليف والانتقال ، فهو كافر ؛ لأنه غير عارف بالله ﷻ ؛ لأن الله - سبحانه - يستحيل وصفه بهذه الصفات ، وإذا لم يعرف الله - سبحانه - ، وجب أن يكون كافراً ، وهذا الكتاب عدة أوراق .

واعلم : أن الله - سبحانه - اصطفى رسلاً من خلقه ، فبعثهم بالدعاء إليه ، والصبر على ما نابههم من جهلة خلقه ، وامتنحهم من المحن بصنوف من البلاء ، وضروب من المحن والأواء ، وكل ذلك تكريماً لهم غير تذليل ، وتشريفاً غير تخسير ولا تقليل .

وكان من أرفع رسله عنده منزلة : أشدهم اجتهاداً وأخذاً في إمضاء أمره ، مع البلية بأهل دهره ، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ [ص : ١٧] ، وقال ﷻ له ولأتباعه - صلى الله عليه وعليهم - : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، وقال ﷻ : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ❶ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] ، فلم يُخل - جل ثناؤه - أحداً من مكرمي رسله وأنبيائه ، ومقربي أصفياؤه وأوليائه ، من محنة في عاجلته دون آجلته ، يستوجب بصبره عليها ما أعدَّ له من الدرجات التي قسم مصيره إليها .

وجعل - سبحانه - علماء الأمم الماضين خلفاء أنبيائهم المرسلين،
والقوَّام بما جاؤوا به من الدين، يوضِّحون عن أحكامه، ويحامون عن
حدوده وأعلامه، يدفعون عنه كيدَ الشيطان، ويحرسونه من الترك والنسيان،
لا يصدُّهم عن التمسك بالحق، ولا يثنيهم عن التعطف على الخلق، سوءً
ما به ينالون، توخياً لثواب الله سبحانه الذي يطلبون، وفيه يرغبون.

ثم جعل سبحانه علماء هذه الأمة أفضلَ علماء الأمم قسماً، وأوفرهم
من الخيرات حظاً، أعدَّ لهم الكرامات، وقسم لهم المنازل والدرجات،
مع ابتلائه سبحانه لمؤمنيهم بالمنافقين، ولصادقيهم بالمكذِّبين، ولخيارهم
بالأشرار، ولصالحهم بالفجَّار، وللأماثل الرفعاء بأوضاع السفهاء، فلم
يكن يثني العلماء ما يلقونه من الأذى عن القيام بحقوق الله تعالى في
عباده، وإظهار الحق في بلاده.

ولقد كان الوالد السعيد - نضر الله وجهه - ممن سلك به هذه الطريق،
عندما ابتلي به من أذية هذا الفريق، وقد قال ﷺ: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى
لِلْغُرَبَاءِ»، قيل: يا رسول الله! من الغرباء؟ قال: «ناسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ،
بَيْنَ نَاسٍ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ» رواه عبد الله بن
عمرو.

ومن تظاهر بإنكار البدع، فسيِّله أن يصبر على أذية المخالفين،
محتسباً عند الله ﷻ، وقد روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْمُؤْمِنُ مُوَكَّلٌ بِهِ أَرْبَعَةٌ؛ مُؤْمِنٌ يَحْسُدُهُ، وَفَاسِقٌ يُبْغِضُهُ، وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ،
وَشَيْطَانٌ يَكِيدُهُ».

وقال الحسن البصري: ما كان مؤمناً قط فيما مضى، ولا يكون مؤمناً فيما بقي، إلا إلى جنبه منافق يؤذيه.

وروى خباب بن الارت رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس! اتقوا الله، فوالله! إن كان الرجل من المؤمنين من قبلكم ليؤضع المنشأ على رأسه، فيشق بنصفين، وما يرده عن دينه، فاتقوا الله، فإن الله فاتح عليكم، وصانع لكم».

وروى أبو موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «ليس أحد أصر على أذى يسمعه من الله، يدعون له ولداً، ويجعلون له صاحبة، وهو يرزقهم، ويعافهم» أخرجه البخاري.

وإذا كان الباري ﷻ يصبر على ما يقول الجاحدون والمشركون، مع قدرته على إهلاكهم وإفنائهم، ومنعهم مما يتفوهون به، لما سبق في علمه من الإملاء لهم ليزدادوا إثمًا، والأنبياء - عليهم السلام - قد صبروا على ما أودوا به، والصالحون قد تأسوا بهم في ذلك، فالواحد منا - مع علمه بتقصيره في كل معنى - لا ينبغي له أن يقلق لكلمة تسوءه، وإذا كان القيام بالذب عن أهل الحق ديناً واحتساباً، فالصبر على ما يصيبه هو من تمام الاحتساب، وقد جاء في الحديث: «إن الرجل ليعطى كتابه يوم القيامة منشوراً، فينظر فيه حسنات لم يعملها، فيقول: يا رب! أي شيء هذا؟ فيقول الله ﷻ: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر».

ويروى عن عبد الرحمن بن مهيدي: أنه قال: لولا أنني أكره أن

يُعْصِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَسَرَّنِي أَنْ لَا يَبْقَى فِي الْمَضْرَ أَحَدٌ إِلَّا اغْتَابَنِي، وَأَيُّ شَيْءٍ أَشْهَى مِنْ حَسَنَةِ يَجِدُهَا الْمَرْءُ فِي صَحِيفَتِهِ لَمْ يَعْمَلْهَا؟ .

وَذَكَرَ أَنَّ شَقِيقًا الْبَلْخِيَّ فَاتَهُ وَرَدُّ فِي السَّحَرِ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ: فَاتَكَ قِيَامُ اللَّيْلَةِ، فَقَالَ: إِنْ فَاتَ ذَلِكَ، فَقَدْ صَلَّى لِي مِنْ أَهْلِ بَلْخٍ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ نَفْسٍ، قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ: بَاتُوا يَصَلُّونَ، فَإِذَا أَصْبَحُوا، اغْتَابُونِي .
وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ قَالَ: إِنَّكَ إِذَا لَمْ يُنْكَعْ عَدُوُّكَ إِلَّا بِمَا يُثْلَمُ بِهِ دِينُكَ، فَبِنَفْسِكَ بَدَأْتَ .

وَقَالَ بَشْرُ بْنُ الْحَارِثِ: لَا تَعْبَأْ بِكَلَامٍ مِنْ تَكَلَّمَ فِيكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَقِيًّا، وَالتَّقِيُّ لَا يَقُولُ مَا يَعْرِفُ، فَكَيْفَ مَا لَا يَعْرِفُ؟

وَرَوَى عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ: أَنَّهُ اجْتَازَ بِخَشْبَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! حَلُمْتُكَ عَنِ الظَّالِمِينَ فَتَّتَ قُلُوبَ الْمَظْلُومِينَ، قَالَ: فَغَشِيَهُ الْكَرَى، فَرَأَى كَأَن سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَالْحُورُ حَوْلَهُ، وَكَأَن قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: يَا عَطَاءُ! حِلْمُنَا عَنِ الظَّالِمِينَ أَوْرَثَ الْمَظْلُومِينَ هَذَا الْمَقَامَ، أَوْ كَمَا قَالَ .

وَمَا ذَكَرْتُهُ مِنْ أَوْصَافِ الْوَالِدِ السَّعِيدِ، فَهُوَ كَالْإِشَارَةِ إِلَى مَا وَرَاءَهُ، وَأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّمَادُحِ، لَكِنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالرَّدِّ عَنْ أَعْرَاضِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِمَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ اغْتَيْبَ عَنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ، فَلَمْ يَنْصُرْهُ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ، أَذَلَّهُ اللهُ

في الدنيا والآخرة».

وروى أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَمَى عِرْضَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا، بَعَثَ اللَّهُ ﷻ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ عَنِ النَّارِ».

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ؛ يَغْنِي: يَخْذُلُ امْرَأَ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ عِرْضُهُ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ ﷻ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امْرَأَ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ عِرْضُهُ، وَتُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ».

وقال - عليه السلام -: «لَمَقَامُ أَحَدِكُمْ فِي الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ حَقٌّ يَرُدُّ بِهَا بَاطِلًا، أَوْ يُحِقُّ بِهَا حَقًّا، أَفْضَلُ مِنْ هِجْرَةٍ مَعِيَ».

وقال - عليه السلام -: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهْدَاكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ».

وقال المروزي: قلت لأبي عبدالله - يعني: إمامنا أحمد -: ترى للرجل أن يشتغل بالصوم والصلاة، ويسكت عن الكلام في أهل البدع؟ فكلح وجهه، وقال: إذا هو صام وصلى، واعتزل الناس، أليس إنما هو لنفسه؟ قلت: بلى، قال: فإذا تكلم، كان له ولغيره، يتكلم أفضل.

* فلنذكر الآن وفاة الوالد السعيد: توفي ليلة الاثنين، بين العشاءين تاسعة عشر رمضان، من سنة ثمان وخمسين وأربع مئة، وصلى عليه أخي أبو القاسم يوم الاثنين بجوامع المنصور.

وقيل: إنه لم يُر في جنازة - بعد جنازة أبي الحسن القزويني الزاهد -

الجمعُ الذي حضر جنازته . فلما أصرَّ المشيعون لجنازته إلى حفرة بمقبرة إمامنا أحمد، لحقهم الحرُّ الشديد، فأفطر جماعة لم يسمحوا بالرجوع، وكان قد حضره عالمٌ كثيرٌ جداً يفوت الإحصاء، وقد روى أنس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ، فَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَبْلُغُونَ الْمِئَةَ، فَيَشْفَعُونَ فِيهِ، إِلَّا شُفِّعُوا».

وروى أبو أمامة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْمِئَةُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَالصِّيتُ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ! إِنَّ رَبِّكَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، فَيَنْزِلُ لَهُ الْمِئَةُ عَلَى الْأَرْضِ». فلقد انتقض السَّودُ بمصابه، وانثلم المذهبُ بذهابه، فهو كما قيل:

الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْفَهْمِ وَاللِّسَنِ
وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُعِدُّنِي عَلَى الزَّمَنِ
وَأَظْلَمَتْ سُبُلُ الْأَدَابِ إِذْ حُجِبَتْ
شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وكما قيل:

وَلَيْسَ نَسِيمُ الْمِسْكِ رَشَحَ حَنُوطِهِ
وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ الْمُخْلَفُ

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ
وَلَكِنَّهَا أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصِفُ

وكما قيل :

لَا أُمَّ لِلْمَوْتِ كَمْ يُبْلِي بِجِدَّتِهِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ حَكِيمًا مَالَهُ خَلْفُ
أَصَابَ قَصْدًا هِلَالًا فِي تَكَامُلِهِ
وَبَحَرَ مَنْطِقِهِ مَا لَيْسَ يُغْتَرَفُ
لَمْ يَبْلِهِ الدَّهْرُ، مَا دَامَتْ بَدَائِعُهُ
تُطَوَّى عَلَى جَمْعِهَا الْأَحْشَاءُ وَالصُّحُفُ

وَمَنْ نَظَرَ فِي تَصْنِيفِهِ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - مِمَّنْ لَهُ فَهْمٌ وَتَيَقُّنٌ، وَعِلْمٌ
وَتَدْقِيقٌ : عِلْمٌ أَنَّهُ يَعْجُزُ عَنْهُ مِنْ يَرُومُ تَصْنِيفَ مِثْلِهِ، وَيَفْضَحُ فِيهِ مَنْ يَتَعَاطَى
حَذْوِ قَوْلِهِ ؛ إِذْ كَلَامُهُ السَّحَرُ الْحَلَالُ، وَالْعَذْبُ الزَّلَالُ، وَالسَّهْلُ الْمَمْتَنَعُ،
وَالْقَرِيبُ الْمُسْتَصْعَبُ ؛ إِذْ هُوَ نَسِيجُ وَحْدِهِ زَهْدًا وَأَدْبًا، وَرَوَايَةً وَأَرْبَاءً،
وَفَرِيدُ عَصْرِهِ سَوْدَدًا وَنَبَلًا، وَفَقْهًا وَجَدْلًا، فَهُوَ كَمَا قِيلَ :

مَاتَ الْبَدِيعُ، وَغَارَتْ دُرَّةُ الْفَطِينِ
وَاسْتَدْرَجَ الْمَوْتُ بَحَرَ الْفَضْلِ فِي كَفْنِ

لِلَّهِ دُرُّ الْمَنَآيَا مَا صَنَعْنَ بِهِ
وَمَا تَضَمَّنَتْ الْأَكْفَانُ مِنْ بَدَنِ

وكما قيل :

تَقَضَّتْ بِشَاشَاتِ الْمَجَالِسِ بَعْدَهُ
وَوَدَّعَنَا إِذْ وَدَّعَ الْأَنْسُ وَالْعِلْمُ
وَقَدْ كَانَ نَجْمَ الْعِلْمِ فِينَا حَيَاتَهُ
فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَقْلَ النَّجْمُ

وكما قيل :

عِشْ مَا بَدَأَ لَكَ فِي الدُّنْيَا فَلَسْتَ تَرَى
فِي النَّاسِ مِنْهُ وَلَا مِنْ عِلْمِهِ خَلْفًا
وَقَالَ تَلْمِيزُهُ عَلِيُّ ابْنِ أَخِي نَصْرُ يَرِثِيهِ :

أَسَفٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ مُقِيمٌ
لِمُصَابٍ بِهِ الْهُدَى مَهْدُومٌ
مَاتَ نَجْلُ الْفَرَاءِ أَمْ رُجَّتِ الْأَرْزُ
ضُ أَمْ الْبَذْرُ كَاسِفٌ وَالنُّجُومُ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى إِمَامٍ حَوَى الْفَضْ
لَ وَهُوَ بِالْمُشْكِلَاتِ عَلِيمٌ

خُلِقَ طَاهِرٌ وَوَجْهُهُ مُنِيرٌ
وَطَرِيقٌ إِلَى الْهُدَى مُسْتَقِيمٌ
كَانَ لِلدِّينِ عُدَّةً وَلِأَهْلِ الدِّينِ —
— فِي النَّبَاتِ خِلٌّ حَمِيمٌ
مَنْ يَكُنْ لِلدُّرُوسِ بَعْدَكَ أَمْ مَنْ
لِجِدَالِ الْمُخَالَفِينَ يَقُومُ
مَنْ لِفَهْمِ الْحَدِيثِ وَالطُّرُقِ يَسْتَوُ
ضَحُّ مِنْهُ صَحِيحُهُ وَالسَّقِيمُ
مَنْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ إِنْ أَشْكَلَ الْحُكْمُ
— وَضَجَّتْ بِالنَّازِلَاتِ الْخُصُومُ
دَرَسَتْ بَعْدَكَ الْمَدَارِسُ فَالْعِلْمُ —
— طَرِيدٌ وَحَبْلُهُ مَصْرُومٌ
هَكَذَا يَذْهَبُ الزَّمَانُ وَيَفْنَى الْ—
— عِلْمٌ فِيهِ وَيُجْهَلُ الْمَعْلُومُ
إِنَّ قَبْرًا حَوَاكِ يَا أَيُّهَا الطُّو
دُ عَجِيبٌ رَحْبُ الْفَنَاءِ عَظِيمٌ

إِنْ يَكُنْ شَخْصُهُ مَحْتَهُ يَدُ الدَّهْرِ

رَفَذَكَرَاهُ فِي الدُّهُورِ مُقِيمٌ

فُنَحْيَا بِذِكْرِهِ كُلَّ وَقْتٍ

وَمُحْيَاهُ فِي التُّرَابِ رَمِيمٌ

أَمْرِي بِالسُّلُوءِ! مَهْلًا؛ فَفِي الْقَلْبِ

بِغَرَامٍ مُبَرِّحٍ مَا يَرِيمُ

كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً هَيَّجَ الْحُزْ

نَ صَنِيعٌ لَهُ وَفِعْلٌ كَرِيمٌ

غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ جَارٍ عَلَى الْخَلِّ

قِيَّ قَضَاءٍ مِنْ رَبِّهِمْ مَحْتُومٌ

فَعَلَى الشَّامَتِينَ خِزْيٌ مُقِيمٌ

وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالْتَّسْلِيمُ

* فلنذكر الآن ما رآه الصالحون في المنام للوالد السعيد من الحباء

والإكرام: قال رسول الله ﷺ: «ذَهَبَتِ النُّبُوءَةُ، فَلَا نُبُوءَةَ بَعْدِي، وَبَقِيَتِ
الْمُبَشِّرَاتُ»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «رُؤْيَا الْمُسْلِمِ الْحَسَنَةِ، يَرَاهَا
الْمُسْلِمُ، أَوْ تَرَى لَهُ» رواه حذيفة.

وسأل عبادة بن الصامت رضي الله عنه النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٦٤﴾
[يونس: ٦٣ - ٦٤]، قال: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى فِي الْيَقَظَةِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِي».

سمعت سعوداً الحبشي الصوفي يقول: لم أدرك الصلاة على القاضي الإمام أبي يعلى بن الفراء - رحمه الله -، فبقيت ضيقَ الصدر، فلما كان أول جمعة أتت على موته، وأنا مصعد في الدجلة، قرب الزاهر، إذا رجل شيخ هناك عليه آثار النسك، فقال لي: السلام عليك، ثم قال: أنت سعودٌ مولى ابن يوسف؟ قلت: نعم، قال: إن ألقى إليك شيء، تلقيه إلى صاحبك؟ قلت: نعم. قال: رأيت البارحة - وهي ليلة الجمعة - كأنني بائثٌ في رباط الزوزني، مقابل جامع المنصور، وقد أقبل عشرة أنفس من نحو باب الشام، يقدمهم شخص لم أر كهيئته، ونوره، فقلت: ما الذي جاء به ﷺ وبكم؟ فقال: سل نبيك، فقلت لأحدهم: من أنت؟ فقال: هذا النبي ﷺ، ونحن العشرة، فقلت: يا رسول الله! أنت بالمدينة، فما الذي جاء بك؟ فقال: جئتُ وأصحابي صليتُ على أبي يعلى بن الفراء، فقلت له: من أقول لصاحبي الذي رأى هذه الرؤيا؟ فقال: ما عليك. هذا لفظه، أو كما قال.

وسمعتُ أحمد بن العلي الزاهد يقول: رأيت القاضي أبا يعلى - رحمه الله - بعد وفاته، في الشهر الذي توفي فيه، في إحدى ليالي القدر، وقد ازداد حسناً إلى حسنه، ونوراً إلى نوره، وكأنه ميت، وهو ملقى على

ظهره، فقلت: ما أحسنَ ما قد صار القاضي! وقد جاؤوه بماء، أو ماء ورد، فأخذ بإحدى يديه، فأمرها على الجانب الآخر، وأخذ بيده الأخرى، فأمرها على الجانب الآخر، وأخذ، فعجبت من ذلك، ثم جاؤوه بكفن من حرير، لم أر مثل حسنه، فأدرج فيه، وحُفر له بركة عرضها شبه عرض باريتين، ودُفن في تلك البركة، وخلق عظيم على رأس تلك البركة، فنظرتُ، إذا بالقرب من تلك البركة سبائكٌ، وعليه نعشٌ، وعلى النعش ميتٌ مكفن بكفن أبيض لم أر مثلاً بياضه، فعرفتُ من ذلك الخلق صاحباً للقاضي أبي يعلى أعجيباً، يدعى بأبي حكيم، فقلت له: من هذا الذي على النعش على السبائك؟ فقال: القاضي أبو يعلى، فقلت له: يا أبا حكيم! أليس قد دفن القاضي في هذه البركة؟ فقال: ذاك المدفون في البركة يزوره الخلق، وهذا رفعناه مكاناً علياً، أو كما قال.

وسمعت محمد بن مواهب يقول: سمعت أبا الحسن بن جدا يقول: كنت نائماً في داري ليلة مات القاضي أبو يعلى، فهتف بي هاتف، وقال: مَا الْعَيْشُ بَعْدَكَ مُسْتَطَابٌ

هِيَ هَاتِ أَنْ يُغْشَى لِمِثْلِكَ بَابٌ

فانتبهت، فلما أسفر الفجر، سمعت منادياً ينادي: من أراد الصلاة على القاضي الإمام أبي يعلى، فعلمتُ أن الهاتف والبيت الشعر لأجله. قال ابن جدا: سألت الله تعالى بعد موت القاضي الإمام أبي يعلى أن أراه في النوم، فرأيتُه، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: يا أبا الحسن!

وحقك ! لقد هُدينا لأمر عظيم .

قال ابن جدا : وسألت الله تعالى أن أرى القاضي أبا يعلى في النوم دفعةً أخرى ، فرأيتُه ، فقلت : يا سيدي ! كيف المذهبُ ثم ؟ فقال لي : يا أبا الحسن ! المذهب بيننا وبين جهنم سدٌّ من حديد ، قلت أنا : وقال ابن سيرين : ما حدثك الميت بشيء في النوم ، فهو حق ؛ لأنه في دار حق .

وسمعت بعض أصحابنا يقول : رأيت ابنَ بكير العكبريَّ في النوم بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أنا عند القاضي أبي يعلى ، فقلت له : قد علمتُ أنك قريبٌ من تربته ، فقال : أنا عنده في الجنة ، أو كما قال .

وسمعت أحمدَ بنَ علي الحنبليَّ يقول : حكى لي سعيدُ بنُ جعفر ، قال : كنت عند بعض شيوخه ، فدخل بعض أصحابي ، فقال : رأيت كأنني في جامع باكرما ، وهي قرية على نهر ملك ، وجمعٌ مجتمعٌ ، فدخلت إلى الجامع ، فرأيت ثلاثة أشخاص على المنبر ، فقلت لبعض من كان بقربي : من هؤلاء ؟ فقال لي : هذا النبي ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، فقلت : يا رسول الله ! بمن الاقتداء ؟ فأوماً إلى شيخ قاعد على المِرْقاة التحتانية من المنبر ، فقلت لمن كان بقربي : من هذا الشيخ ؟ فقال لي : هذا أبو يعلى ابن الفراء ، أو كما قال .

قال : وقرأت بخط شيخنا الشريف أبي جعفر ، قال : رأيت شيخنا - يعني : الوالد السعيد - في المنام ، وهو في أحسن صورة رأيتُه في دار

الدنيا، وكأنه شاب، في لحيته طاقات بياض يسيرة جداً، وهو بمسجده
 بباب الشعير، فتقدمت لأسلم عليه، فقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
 نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وكتب إليَّ عليُّ بنُ محمد بن المسيح، قال: حدثني أبي، قال:
 أريت في منامي كأن قاتلاً لي: مات في هذه الليلة أحمدُ بنُ حنبل، فارثه،
 فانتبهت مرعوباً، وقلت: لعله بدعةٌ تظهر، وسنةٌ تموت، فوالله! ما كان
 إلا أيامٌ قلائلُ، فوصلتني مكاتبة القاضي أبي علي يعقوب - رحمه الله -
 بوفاة الإمام أبي يعلى عليه السلام في الليلة التي رأيت فيها المنام، قال: وذكرت
 قول القائل: «ارثه»، فقلتُ ما لم أرْضه، وما زلتُ، حتى قلت هذه
 الأبيات:

مَاتَ السَّدَى وَالنَّدَى وَالْمَجْدُ وَالْكَرْمُ
 وَالْعَالِمُ الْيَقِظُ الْمُسْتَبْصِرُ الْعَلَمُ
 مَاتَ الْإِمَامُ أَبُو يَعْلَى الَّذِي نُدِبَتْ
 لِفَقْدِهِ الْكَعْبَةُ الْغُرَاءُ وَالْحَرَمُ
 يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْحَبْرُ الَّذِي كَسَفَتْ
 شَمْسُ الْهُدَى بَعْدَهُ بَلْ عَادَهَا الظُّلُمُ
 لَوْلَاكَ مَا كَانَ لِلدُّنْيَا وَسَاكِينَهَا
 مَعْنَى وَلَا عَرَفَتْ طُرُقَ الْهُدَى الْأُمَمُ

وَلَا رُوي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ مَأْثَرَةٌ

وَلَا قَضَى بِصَحِيحٍ غَيْرِ فَيْكَ فَمُ

لَمْ يَنْلِغِ الْحَنْبَلِيُّ الْحَبْرُ مَرْتَبَةً

إِلَّا عَلَى رَأْسِهَا مِنْ جِسْمِكَ الْقَدَمُ

أَوْضَحْتَ سُبُلَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا دَرَسْتَ

عَنِ الْوَرَى فَقَدَتِكَ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ

مَادَتْ بِنَا الْأَرْضُ وَارْتَجَّتْ بِسَاكِنِهَا

لَمَّا قُبِرْتَ وَكَادَ الدِّينُ يَنْهَدِمُ

* فلنذكر الآن شذرة من آدابه وورعه :

سمعت أبا الحسن النهري قال : كنت في بعض الأيام أمشي مع القاضي والدك فالتفتُ ، فقال لي : لا تلتفتُ إذا مشيتَ ؛ فإنه ينسب فاعلُ ذلك إلى الحمق .

قال النهري : وقال لي والدك يوماً آخر ، وأنا أمشي معه : إذا مشيتَ مع من تعظّمه ، أين تمشي منه ؟ فقلت : لا أدري ، فقال : عن يمينه ، تُقيمه مقام الإمام في الصلاة ، وتخلى له الجانب الأيسر إذا أراد أن يستنثر ، أو يُزيل أذى ، جعله في الجانب الأيسر .

وقال النهري أيضاً : لما قدم الوزير ابن دارست ، عبرت أبصره ، ففاتني درسُ ذلك اليوم ، فلما حضرتُ ، قلت : يا سيدنا ! تتفضل وتعيد لي

الدرس؟ فقال: أين كنتَ في أمسنا؟ فقلت: مضيتُ أبصرتُ ابنَ دارست، فأنكر عليّ ذلك إنكاراً شديداً، وقال: ويحك! تمضي وتنظر إلى الظلّمة؟ وعَنَّفني على ذلك، وروى عن النَّبِيِّ ﷺ: أنه قال: «النظرُ إلى الظالمين يطفىءُ نورَ الإيمان»، أو كما قال، قال: وكان ينهانا دائماً عن مخالطة أبناء الدنيا، والنظر إليهم، والاجتماع بهم، ويأمرنا بالاشتغال بالعلم، ومخالطة الصالحين.

وسمعت خالي عبدَ الله - رحمه الله - يقول: حضرت مع القاضي الإمام والدك في دار رئيس الرؤساء، بعد مجيء طغربك، وقد أنفذ إليه غير مرة ليحضر، فلما حضر، قرَّبَه رئيسُ الرؤساء، وزاد في إكرامه وإعظامه، وأجلسه حتى مسَّ بعضُه بعضَه، بجنب المخدة، وقال له ما سمعه أهل المجلس: لم يزل بيت «المسلمة» وبيت «الفراء» ممتزجين مختلطين، فما هذا الانقطاع؟ فقال له القاضي الإمام: يروى عن شيخنا إبراهيم الحربي: أنه استزاره المعتضد، وقربه، وأجازه، فردَّ جائزته، فقال له: اكنتم مجلسنا، ولا تخبرُ بما فعلنا بك، وبما قابلتُنا به، فقال له الحربي: لي إخوان لو علموا باجتماعي معك، هجروني، فقال له رئيس الرؤساء كلاماً أسره إليه، ومدَّ كُمَّه إليه، فتأخر القاضي الإمام عنه، وسمعته يقول: أنا في كفاية ودعة، فقلت له: يا سيدنا! ما قال لك؟ قال: قال لي: معي شيء من بقية ذلك الإرث المستطاب، وليس مما قد تلوَّثنا به من الدنيا، فأحب أن تأخذه، وتصرفه في بعض حوائجك، فقلت له: أنا في كفاية ودعة، أو كما قال.

وسمعت بعض أصحابنا يحكي أنه لما حصب الإمام القائم بالله - رضوان الله عليه -، وعوفي: حضر الشيخ أبو منصور بن يوسف عند الوالد السعيد، وقال له: لو سهل عليك أن تمضي إلى باب الغربية لتهنئ الإمام بالعافية؟ فمضى إلى هناك، فخرج إليه محمد الوكيل، ومعه جائزة سنّية، وعَرَفَه شكرَ الإمام لسعيه، وتبرُّكَه بأدعيته، ويسأله قبولَ ذلك، قال: فوالله! ما مسها، ولا قَبَلُها، فروجع في ذلك، فأبى، أو كما قال.

وسمعت جماعة من أهلي يحكون: أن في سنة إحدى وخمسين وأربع مئة، لما وقع النهب ببغداد بالجانب الغربي منها، وانتقل الوالد السعيد من درب الديزج إلى باب البصرة، وكان في داره بدرب الديزج خبز يابس، فنقله معه، وترك نَقْلَ رحله؛ لتعذُّر من يحمله، واختار حمل الخبز اليابس على الرحل النفيس، وكان يقتات منه، ويبله بالماء، وقال: هذه الأطعمة اليوم نُهوبٌ وغُصوب، ولا أَطْعَمُ من ذلك شيئاً، فبقي ما شاء الله يتقوّت من ذلك الخبز اليابس المبلول، ويتقلل من طعمه إلى أن نفذ، ولحق الوالد السعيدَ من ذلك الخبز اليابس المبلول مرض.

وكان الوالد السعيد في كل ليلة جُمعة يختم الختمة في المسجد بعد صلاة عشاء الآخرة، ويدعو، ويؤمّن الحاضرون على دعائه، ما أخلّ بهذا سنين عديدة، إلا لمرضٍ، أو لعذر مستفيض، سوى ما كان يختمه في غير تلك الليلة.

فهذا القدر الذي ذكرته إشارة إلى بعض مناقب الوالد السعيد. ولقد أجمع الفقهاء، والعلماء، وأصحاب الحديث والقراء، والأدباء والفصحاء،

وسائر الناس - على اختلافهم - على صحة رأيه، ووفور عقله، وحسن معتقده، وجميل طريقته، ولطف نفسه، وعلو همته، وزهده، وورعه، وتقشفه، ونزاهته، وعفته، وكان ممن جمعت له القلوب؛ فإنه روي عن محمد بن واسع: أنه قال: إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله تعالى، أقبل إليه بقلوب المؤمنين.

* فلنختم الآن أخبار الوالد السعيد، الذي من الله الكريم عليه بعلم الفقه، وتعليمه، وتدريسه، وتصنيفه أفضل العلوم، وأجزلها للثواب المقسوم، وأولاها بصرف الفكر إليه، ووقف الرأي الصائب عليه؛ فإنه العروة الوثقى، والمحجّة المثلى، الدالة على طاعة الله - جلّ ذكره -، وأداء مفترضاته، والتميز به بين محرّماته ومحلّلاته، والوقوف على حدوده ومعالمه، وشروطه ومراسمه. وإن ربّحه الجنة، وخسرانه النار.

روى أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِهِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ، وَيَدْخُلُوا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا خَالَطُوا السُّلْطَانَ، وَدَخَلُوا فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ، فَاعْتَرَلُوهُمْ، وَاحْذَرُوهُمْ».

وروى ابن عباس، عن النّبِيِّ ﷺ: أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وروى عبد الله بن عمر، عن النّبِيِّ ﷺ: أنه قال: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْفِقْهُ، قَلِيلُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ : أنه قال : « مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهِ فِي دِينٍ ، وَلَفَقِيهِ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ ، وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الْفِقْهُ » .

وقال أبو هريرة : أن أجلسَ ساعةً ، فأتفقّه ، أحبُّ إليَّ من أن أحيي ليلةً إلى الغداة .

وروى عليّ رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « الْأَنْبِيَاءُ قَادَةٌ ، وَالْعُلَمَاءُ سَادَةٌ ، وَمُجَالَسَتُهُمْ عِبَادَةٌ » .

وسئل عبد الله بن عباس عن الجهاد؟ فقال للسائل : ألا أدلك على أفضل من الجهاد؟ قال : بلى ، قال : تبني مسجداً ، وتعلّم فيه القرآن والفقه والسنة .

قلت أنا : ولفضيلة الفقه دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس بالفقه في الدين ، فقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » ، فأجاب الله دعاء نبيه ﷺ ، فوفّر فقهه وزكاه ، وثمّره ونمّاه ، وجعله نوراً يستضاء به ، وحجة باقية في عقبه .

فالحمد لله الذي أنعم علينا بأن وفقنا لاتباع الوالد السعيد في أصوله وفروعه ، وجنبنا مخالفته ، وجعلنا من ذريته وأهل محبته ، وشغلنا بعلومه ، وما أتعب نفسه في جمّعه في ليله ونهاره ، وسفره وحضره ، وشبابه وكبره ، من اتباعه السنن الشرعية ، والشعائر الدينية ، الفارقة بين الأبرار والفجار ، والحاجزة بين الجنة والنار .

أنشدني بعض أصحابه وتلامذته :

مَنْ اقْتَنَى وَسِيلَةً وَذُخْرَ

يَرْجُو بِهَا مَثْوًى وَأَجْرًا

فَحُجَّتِي يَوْمَ أَوْفَى الْحَشْرَا

مُعْتَقْدِي لِمَذْهَبِ ابْنِ الْفَرَا

قلت أنا : ومعتقداً ومعتقداً الوالد السعيد ، ومن تقدمه من أئمتنا مبني على حرفين : السكوت عن «لِمَ؟» في أفعاله ﷺ ، وعن «كيف؟» في أوصافه - تبارك وتعالى - ، نسأل الله الكريم أن يُزَهِّدنا فيما زهد الوالد السعيد فيه ؛ فإنه كان يذم الدنيا ، ويأمر بالتقليل منها .

أنبأنا أحمد بن علي الخطيب : حدثنا عبد الواحد بن المهدي بالله : حدثنا الحسين بن أبي معشر : أخبرنا وكيع ، عن المسعودي ، عن عمرو ابن مرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله : أن النبي ﷺ قال : «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا مَثْلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَائِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ سَمُرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» .

وروى أبو ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا ، أَدْخَلَ اللَّهُ ﷻ الْحِكْمَةَ قَلْبُهُ ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانُهُ ، وَبَصَّرَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَلِيمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» .

وروى أبو هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : «الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْجَسَدَ» .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ
الْآخِرَةِ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ
رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا، جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ
عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ» .

وروى أبو موسى ، قال : قلت : يا رسول الله ! الرجل يحبُّ القوم ،
ولمَّا يلحقُ بهم ؟ قال : «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» .

وكان الوالد السعيد - نور الله ضريحه - قد اجتمع فيه ما رواه ابن
عباس ، قال : قيل : يا رسول الله ! أي مجلسنا خير ؟ قال : «مَنْ ذَكَرَكُمْ
بِاللَّهِ رُؤْيَاهُ، وَزَادَ فِي عَمَلِكُمْ مَنْطِقَهُ، وَذَكَرَكُمْ الْآخِرَةَ بِعِلْمِهِ» .

وهذا بعض مناقبه وفضائله ، وما هو شائع له بين الناس من زهده
وعلمه أكثر ، فأغنانا عن أن نسطره ، ولولا أن أكثر من رآه وعاصره ،
وحضر مجلسه وناظره ، قد درج وانقرض ، لما ذكرنا هذه الشذرات من
مناقبه ، إذ كانت تتضمن مدحنا ، والإنسان لا يمدح نفسه .

* ولعل ناظرًا في هذا الذي أوردناه وسطرناه ، يقول : كيف استجاز
مدح والده على لسانه ، وهو الأصل ، ومدح الأصل مدح للفرع ؟ فنقول :
إنما حملنا على ذلك كثرة قول المخالفين ، وما يلقون إلى تابعيهم من
الزور والبهتان ، ويتخرَّصون على هذا الإمام من التحريف والعدوان ،
وكان لنا في ذلك رخصة ، قد سبق إليها الأنبياء والأولياء - رضوان الله
عليهم وسلامه - ، فقد قيل : إذا اضطرَّ الإنسانُ إلى مدح نفسه ، فلا بأس

بذلك، قال الله تعالى في قصة يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم
ابن الخليل - عليهم السلام -: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ
عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وقال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءِ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ».

قيل في معناه قولان؛ أحدهما: يعني: ولا فخر أعظم من هذا.
وقال عليه السلام: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ».

روي عن بعض أصحابه نحو هذا الكلام من المدح للنفس في
بعض المواضع التي احتاج فيها إلى ذلك؛ فروي: أن أمير المؤمنين عثمان
ابن عفان رضي الله عنه قال لهم حين ادَّعَوْا عليه ما هو بريء منه فقال لهم
عثمان: لولا أنكم قلتم، لما قلتُ، إني رابعُ أربعةٍ في الإسلام، وزوَّجني
رسولُ الله ﷺ ابنتيه، وحفرت بئر رومة، وجهزت جيشَ العسرة، وزدت
في المسجد، وما بغيتُ ولا تمنيتُ، ولا مسست فرجي يميني منذ بايعت
رسولَ الله ﷺ، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا مرَّت بي جمعة إلا
وأنا أعتق فيها نسمةً، إلا أن لا أجد في تلك الجمعة نسمةً، فأعتق في
الجمعة الأخرى نسمتين.

وأخبرنا الوالد السعيد - قراءة - قال: أخبرنا علي بن عمر الحربي،
قال: حدثنا حامد بن بلال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله البخاري،
قال: حدثنا بحير بن النضر: حدثنا غنجار، عن قيس بن الربيع، عن
عمرو بن عبيد الله - يعني: أبا إسحاق السبيعي -، عن عاصم بن ضمرة،

قال: سمعت الحسن بن عليٍّ عليه السلام يقول على هذا المنبر: إن علياً لم يسبقه الأولون، ولم يدركه الآخرون، والله! ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبع مئة درهم فضلت من عطائه، لبيتاع بها خادماً، والله! إن كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليدفعُ إليه الراية، فيقاتلُ عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل، فما يرجع حتى يفتح عليه.

وأخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد المعدل، قال: أخبرنا أبو طاهر المخلص، قال: أخبرنا أبو عبد الله الطوسي، قال: أخبرنا الزبير بن بكار الزبيري، قال: حدثني رجل، عن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الله، قال: حدثني محمد بن القاسم - مولى بني هاشم - قال: بلغ عائشة - رضي الله عنها - أن ناساً يتناولون أبا بكر - رضوان الله عليه -، فبعثت إلى أزفلة منهم، فلما حضروا، أسدلت أستارها، فحمدت الله، وأثنت عليه، وصَلَّت على نبيها صلى الله عليه وآله، وعذلت وقرعت، ثم قالت: أبي، وما أبيه؟ أبي والله! لا تعطوه الأيدي، ذاك طود مُنيف، وفرع مديد، هيهات هيهات! كذبت الظنون، أنجح - والله - إذ كذبتُم، وسبق إذ ونِيتُم، سبق الجواد إذا استولى على الأمد، فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يفكُّ عانيها، ويريش مُملقها، ويرأبُ شعبها، حتى حلتها قلوبها، ثم استشرى في دينه، فما برحت شكيمته في ذات الله صلى الله عليه وآله حتى اتخذ بفنائها مسجداً يُحيي فيه ما أَمات المبطلون، وكان - رحمة الله عليه - غزير الدمعة، وقيد الجوانح، شجيَّ النشيج، فانقصفت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه، يستهزئون به؛ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]،

فأكبرت ذلك رجالاً قريش، فحنت له قسيها، وفوقت له سهامها، وامتلوه غرضاً، فما فلُّوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سياسائه حتى ضرب الدين بجراحه، وألقى بُركنه، وأرست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أشتاتاً وأرسالاً، اختار الله ﷻ لنبيه ﷺ ما عنده، فلما قبض الله نبيّه، نصب الشيطانُ رواقه، ومدَّ طنبه، ونصب حباله، وأجلب بخيله ورجله، فظنت رجال بأن قد تحققت أطماعهم - ولات حينَ الذي يرجون - وأنى والصديقُ بين أظهرهم؟ فقام حاسراً مشمراً، فجمع حاشيته، ورفع قطريه، فردَّ نشرَ الإسلام على غرة، ولمَّ شعثه بطيه، وأقام أودّه بثقافه، فامدقرَّ النفاق بوطأته، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحقَّ على أهله، وقرر الرؤوسَ على كواهلها، وحقن الدماءَ في أهبها، أته منيته، فسد ثلمته بنظيره في المرحمة، وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله أمُّ حفلت له ودرّت عليه، لقد أوحدت به، ففنخ الكفرة ودنخها، وشرّد الشرك شذر مذر، وبعج الأرضَ وبخعها، فقاءت أكلها، ولفظتُ خباها، ترأّمه ويصدف عنها، وتصدّى له ويأبأها، ثم وزع فيها فيئها، وودعها كما صحبها، فأروني ما تربؤون، فأَيَّ يومَي أبي تنقمون؟ أيومَ إقامته إذ عدل فيكم؟ أو يومَ طعنه وقد نظر لكم؟ وأستغفرُ الله لي ولكم.

وقد روي عن إسحاق بن راهويه: أنه قال: سألتني أحمدُ بنُ حنبلٍ عن حديث الفضل بن موسى؛ حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يلحظ في صلاته، ولا يلوي عنقه خلف ظهره - قال: فحدثته. فقال رجل:

يا أبا يعقوب! رواه وكيع بخلاف هذا، فقال له أحمد بن حنبل: اسكت،
إذا حدثك أبو يعقوب أمير المؤمنين، فتمسك به .

قلت أنا: فهذا إسحاق بن راهويه يمدح نفسه، وهذا أحمد قد
جعله أمير المؤمنين - يعني: في الحديث -، فأولى لنا أن نذكر والدنا،
ونذكر طرفاً من فضائله ومناقبه، وعلومه وورعه، فهذا خاصة في مدح
الإنسان نفسه إذا احتاج إلى ذلك .

ولولا أن الذين قد جمعوا التواريخ حملتهم عصبيتهم وأهواؤهم
على ترك فضائله، ونشر مناقبه، لما ذكرنا ما ذكرناه، فلما رأينا الذين قد
رأوه، وحفظوا ما سمعوه من فضائله من الشيوخ، وشاهدوا بعض ذلك
ينقرضون، والمؤرخون الذين أرخوا قصروا في نشر فضائله، لأجل من
يهوى هواهم من المخالفين، آثرنا ذكر بعض ما انتهى إلينا من فضائله،
فليعذرنا من وقف عليه، ولا ينسبنا من الذين يتشبعون بما لم يُعطوا،
وليسأل من يثق به من أهل الثقة والمعرفة والخبرة بالقاضي الإمام - رحمه
الله -، ولا يلتفت إلى قول مخالف ومباين بالبدعة، فيعلم أن الذي سطرناه
ما استعرنا منه ذلك؛ إذ كان فيه أضعاف ما ذكر من الفضل والعلم والزهد .
فنسأل الله أن يُحيينا على الإسلام والسنة، وأن يُميتنا عليهما،
ولا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، بمنه وكرمه، إنه سميع الدعاء .



أَلْفَصْلُ الثَّانِي
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْكِتَابُ

الفصل الثاني دراسة الكتاب

البحث الأول تحقيق اسم الكتاب

- جاء على ظهر النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»: «الرابع من التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف» .
وجاء على ظهر النسخة الخطية لدار الكتب المصرية، المرموز لها بـ «م»: «الرابع من التعليق الكبير في المسائل الخلافية» .
وقد جاء في آخر هذه النسخة: ويتلوه في المجلد الخامس: مسألة: إذا اشترى عبيدين، فمات أحدهما، ثم وجد بالثاني عيباً، وهو أول الجزء الأربعين من «مسائل الخلاف» .
- وأثبت أبو الحسين ابن القاضي أبي يعلى الحنبلي في ترجمة أبيه من «طبقات الحنابلة»: أن والده صنف كتاباً في مسائل الخلاف، ثم سماه بـ: «الخلاف الكبير» .

فهل هو نفس «التعليقة» أو كتاب آخر؟

الذي يظهر لنا أنه نفسه بدليل كلام المرداوي الآتي بالجزم بذلك .

- وقد نسب الإمام الذهبي الكتاب لأبي يعلى الكبير في «سير أعلام النبلاء» ، وسماه : «التعليقة الكبيرة» ، لكنه في «تاريخ الإسلام» نقل كلام أبي الحسين وتسميته .

- وقد نقل المرداوي في «الإنصاف» في مواضع عدة من مصنف الإمام القاضي أبي يعلى ، وسماه : «الخلاف الكبير» ، وأحياناً : «التعليق الكبير» . وقال في مقدمة «الإنصاف» : فمما نقلت عنه من المتون : «الخرقي» ومعظم التعليقة ، وهي «الخلاف الكبير»^(١) .

ونقل عنه في «تصحيح الفروع ، وسماه : «التعليقة الكبيرة» .

ونقل الإمام يوسف بن عبد الهادي الحنبلي المتوفى سنة (٩٠٩هـ) في مواضع من الجزء الثالث والستين من كتابه «جمع الجوامع في الفقه على مذهب الإمام أحمد» عن مصنف القاضي أبي يعلى ، وسماه : «التعليق» .

- وذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١ / ٤٢٤) ، وقال : «التعليقة في الخلاف» للقاضي أبي يعلى . قال ابن الجوزي : إنه لم يحقق فيها بيان الصحة والمردود .

وقد أثبتنا اسم «التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف» ؛ اعتماداً على ما جاء على ظهر النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي في تركيا ؛ لأنها

(١) انظر : «الإنصاف» (١ / ١٣) .

العمدة لدينا في إخراج هذه القطعة، ولأن خط الغلاف يعود إلى تاريخ النسخة، وليس مدخلاً عليها، كما عليها تملك بخط الشيخ ابن المنجاء المتوفى سنة (٧٤٦هـ)، وهو من أعلام الحنابلة.

إضافة إلى ما ذكر عند غير واحد ممن نقل عن هذا المصنف، مع الإشارة أن للكتاب مسميات أخرى صحيحة؛ ك: «الخلاف الكبير»، كما أثبت ابنه، وهو أعرف الناس به، وغيره.

* * *

المبحث الثاني إثبات نسبة الكتاب إلى المؤلف

١ - ثبتت نسبة الكتاب إلى القاضي أبي يعلى الحنبلي في النسختين الخطيتين للكتاب .

٢ - نسب أبو الحسين بن أبي يعلى الكبير كتاب «الخلاف الكبير» لوالده - كما مرّ - .

٣ - ونسب الإمام الذهبي «التعليقة» لأبي يعلى الكبير، فقال في «سير أعلام النبلاء»: أبو يعلى محمّد بن الحسين بن محمّد بن خلف ابن أحمد البغدادي، الحنبلي، ابن الفراء، صاحب «التعليقة الكبرى»، والتّصانيف المفيدة في المذهب .

٤ - ما ورد في الكتاب نفسه من ذكر بعض معاصري الإمام أبي يعلى، ومنهم: قاضي القضاة أبي عبدالله الدّامغاني، وأبي بكر الشامي، وهما متقدمان على أبي يعلى الصغير .

أما أبو عبدالله الدّامغاني، فهو قاضي القضاة، أبو عبدالله الدّامغاني، شيخ الحنفية في زمانه، بقي في القضاء نحواً من ثلاثين سنة، وقد توفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مئة .

وقد قال القاضي أبو يعلى في «التعليقة الكبيرة»: «وسألت قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني عن ذلك، فقال لي: الفائدة فيه اليمين، وليس تحته فائدة حكمية تختصه».

وأما أبو بكر الشامي، فهو قاضي القضاة، محمد بن المظفر بن بكران، الحموي، الفقيه الشافعي، ولي قضاء القضاة ببغداد بعد موت أبي عبد الله الدامغاني سنة ثمان وسبعين، قال السمعاني: هو أحد المتقنين لمذهب الشافعي، وله اطلاع على أسرار الفقه.

وقد توفي سنة ثمان وثمانين وأربع مئة.

وقد قال القاضي أبو يعلى في «التعليقة الكبيرة»: «وقال لي أبو بكر الشامي: مذهب الشافعي: إن حُصرَ بعدو، جاز له التحلل، وعليه دم؛ سواء شرط التحلل في إحرامه، أو لم يشترط».

* * *

المبحث الثالث مَوَارِدُ الْمُؤَلِّفِ فِي الْكِتَابِ

لم يُفْصَحِ المؤلِّف - رحمه الله - في مصنّفه هذا عن كثير من الكتب التي نقل عنها - على الأقل في القطعة التي بين أيدينا - إلا في القليل النادر، وخصوصاً فيما يتعلق بالجانب الفقهي .

وقد أكثر من النقل عن كتب الحنابلة المتقدمة ؛ خصوصاً الروايات والمسائل المنقولة عن الإمام أحمد - رحمه الله - ، ولعل أهمّها :

- ١ - رواية الإمام عبد الله بن الإمام أحمد .
- ٢ - رواية صالح بن الإمام أحمد .
- ٣ - رواية حنبل .
- ٤ - رواية المروزي .
- ٥ - رواية ابن منصور .
- ٦ - رواية إسحاق بن إبراهيم .
- ٧ - رواية الأثرم .
- ٨ - رواية أبي جعفر محمد بن أبي حرب الجرجاني .

- كما أكثر من النقل عن «مختصر الخرقى»، و«شرح مختصر الخرقى» لأبي حفص العكبرى، و«التنبيه»، و«الشافى»، و«الخلافة» لأبي بكر، و«مختصر الحج» للأثرم، و«جزء فى فسخ الحج» لأبي عبدالله بن بطة، و«تعالىق كتاب العلل» لأبي إسحاق.

- كما نقل عن «اختلاف الفقهاء» للطحاوى.

- ونقل عن كتاب «الاستثناء والشروط فى القرآن» لأبي عبدالله بن عرفة، و«تارىخ الحاكم» المسمى: «لوامع الأمور وحوادث الدهور» لأبي إسحاق إبراهيم بن حبيب.

- أما احتجاجه بالحديث، فأكثر من الاستشهاد بـ «مسند الإمام أحمد»، و«سنن أبى داود»، و«سنن الدارقطنى»، و«سنن أبى عبدالله بن بطة»، و«سنن أبى الحسين بن المظفر»، و«سنن أبى بكر النجاد»، وأبى حفص البرمكى.

* * *

المبحث الرابع مَنْزِلَةُ الْكِتَابِ الْعِلْمِيَّةِ

لو كان هذا الكتاب كاملاً، لكان مرجع كل فقيه حنبلي؛ فمؤلفه إمام مقدّم، وهو شيخ الحنابلة في عصره، إليه يُرجع في الرواية والتصحيح والترجيح على مذهب الإمام أحمد، والكتاب نفسه نبغ استقى منه علماء الحنابلة على مرّ الزمان، فنقلوا عنه راضين به، مطمئنين إليه، حتى إن لقب (القاضي) إذا أُطلق، لم ينصرف إلا إلى أبي يعلى - رحمه الله -.

وقد أكثر فقهاء الحنابلة من النقل عن كتاب التعليقة هذا؛ كما أشرنا في نقل ابن مفلح، والمرداوي، والزركشي، وابن عبد الهادي، وغيرهم. ثم انظر شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في معتقده في مصر يطلب جملة من حوائجه، في مقدّمها: كتاب «التعليقة» هذا، فقال - رحمه الله -: وترسلون - أيضاً - من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً، وإلا، فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة، وذكر كتباً يطلبها منهم؛ لتعرف عظمة ومنزلة هذا الكتاب عند هذا الإمام الجليل.

وتأمّل قول الإمام الذهبي عن الإمام القاضي أبي يعلى: صاحبُ

«التعليقة الكبرى»، والتصانيف المفيدة في المذهب.

فإذا تأملتَه، ورأيتَ كيف عرّف إماماً بكتاب، عرفتَ قيمة هذا الكتاب، وعرفتَ أنه أشهرُ من نار على علم.

ووصفه العلامة ابنُ بدران في «المدخل» - كما مرَّ - بقوله: وأجمعُ ما رأيتهُ لأصحابنا في هذا النوع - أي: فن الخلاف -: «الخلاف الكبير» للقاضي أبي يعلى، وهو في مجلدات، ولم أطلع منه إلا على المجلد الثالث^(١)، وهو ضخْم، أوله كتاب الحج، وآخره باب السلم، وقد سلك فيه مسلكاً واسعاً، وتفنن في هدم كلام الخصم تفنناً لم أره في غيره، واستدل بأحاديث كثيرة.

ولقد ضاع معظم هذا السفر النفيس، ولم نقف منه إلا على المجلد الرابع، ولكننا وجدنا فيه من الفوائد ما يحثُّ على نشره، لا سيَّما ما ذكره من روايات عن الإمام أحمد لم نجدها في شيء مما بين أيدينا من المصادر، كما أن مطالعه يستطيع أن يلتقط من فوائده درراً، ويشحذ بمُحاكماته فكراً، ويزداد من فقهه نبلاً، ومن فيضه علماً.

* * *

(١) كذا قال، ولعله سبق قلم، عنى به الرابع.

المبحث الخامس وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق

تمّ الاعتماد في تحقيق هذه القطعة النفيسة من المصنّف الجليل على نسختين خطيتين، أولاهما: نسخة دار الكتب المصرية، وثانيهما: نسخة فيض الله أفندي في تركيا، وهذا وصف لكل واحدة منهما: النسخة الأولى:

* نسخة دار الكتب المصرية، تحت رقم (١٤٠) فقه حنبلي، (٦١٣)، وتقع في (٢٨٩) لوحة، في كل لوحة صفحتان، وفي كل صفحة ستة وعشرون سطراً، وفي كل سطر خمس عشرة كلمة تقريباً. وجاء في آخرها تاريخ نسخها، وهو سنة (٨٧٠هـ). جاء على غلافها: الرابع من التعليق الكبير للإمام القاضي أبي يعلى. وجاء عليه تملك لعله للشيخ محمد بن أحمد بن المنجّ التنوخي، وفيها وقف على طلبة العلم من الحنابلة. واشتمل على (كتاب: الحج) - لعله من أوله كله -، وجزء من كتاب: البيوع.

ابتدأ بكتاب الحج من قوله: «مسألة: من شرط وجوب الحج:

وجودُ الزاد والراحلة . . . » .

وختمت النسخة من (كتاب : البيوع) بمسألة : «إذا اشترى عبداً فقتله ، أو طعاماً فأكله ، ثم ظهر على عيب ، رجع بأرشه» ، ثم جاء في آخرها : «آخر التاسع والثلاثين . ووافق الفراغ من كتابته في حادي عشرين ذي الحجة الحرام ، من شهور سنة سبع وثمان مئة ، والحمد لله والشكر لله بعدد الشفع والوتر ، وكلمات الله التامات الطيبات المباركات ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وآله وأصحابه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، والملائكة وعباد الله الصالحين ، وغفر الله لكتابه ، ولمالكه ، ولمصنفيه ، ولجميع المسلمين ، آمين ، إنه أرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين .

واشتمل هذا المجلد الرابع على عشرة أجزاء من تجزئة المؤلف ، كما أثبت في مواضع عدة من النسخة الخطية .

سقط منه ما وجد من مسائل الاعتكاف في نسخة فيض الله ، وعدتها ثلاث عشرة مسألة .

وقد تأثرت هذه النسخة بالرطوبة والطمس في كثير من أوراقها ، وبالبياض كلمات وجماً في مواضع عدة - أيضاً - .

وبالتحريف والتصحيف السمجين الثقيلين ، اللذين ربما قلَّ نظيرهما في غيرها من المخطوطات الإسلامية ، ولعل هذه القطعة تصلح مثلاً على صعوبة نشر أمثال هذه المخطوطات .

- وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز (م) .

النسخة الثانية :

* نسخة فيض الله أفندي بتركيا : تحت رقم (٦٩٥)، جاء على ظهرها : الرابع من التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف على مذهب الإمام الأعظم المبجل إمام الأئمة، ورباني هذه الأمة، أبي عبدالله.

ثم قال : فيه من الأبواب : بعض الاعتكاف، وكتاب الحج، وبعض كتاب البيوع المشتمل على مسائل الربا.

* ثم جاء عليه تملك كُتب فيه : من كتب الفقير إلى الله تعالى : محمد بن أحمد بن المنجا الحنبلي التنوخي^(١)، ثم عليه تملك لم يظهر لنا رسمه جيداً، ولعل تاريخه سنة (٨٦٦هـ).

وعدد لوحاته (٢٣٣) ورقة، في كل ورقة وجهان، وفي الوجه (٢٥) سطراً، وفي السطر (١٢) كلمة تقريباً.

بدايته من مسائل في (كتاب : الاعتكاف)، مسألة : «لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الجماعات...»، عدد المسائل المذكورة في هذا الكتاب (١٣) مسألة، مما يدل على أن خرقاً قد اعترى أولها، كما سقطت الورقات الأولى من (كتاب : الحج) لعلها بمقدار سبع لوحات. وجاء في آخره : «من اختلافهما في الإصابة : أن القول قول الزوج؛

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات» للصفدي (١٠٨ / ٢) قال فيها : ناظر الجامع الأموي بدمشق، وابن عم قاضي القضاة علاء الدين الحنبلي، كان جماعة للكتب، اقتنى منها شيئاً كثيراً. توفي سنة (٧٤٦هـ).

لأن المرأة تدّعي معنّى ترفع به القيد، فلم تُقبل دعواها.
وهي عند المسألة (٣٢٧)؛ أي: سقط منها أربع مسائل، جاءت
في النسخة «م».

وهذه النسخة كنظيرتها السابقة من حيث التحريف والتصحيح،
وكثرة الأخطاء والأسقاط والبياضات في مواضع الكلام، إلا أنها أكثر
وضوحاً من حيث الخط.

- وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز (ت).

والذي ظهر لنا أن النسختين: دار الكتب المصرية، وفيض الله أفندي
قد نسخت عن أصل واحد، أو أن إحداهما منسوخة من الأخرى؛ فقد
ذكرت في «ت» و«م» جمل مثل: «آخر الثلاثين من الأصل»، و«أول
الجزء الأربعين من الأصل»، ونحوها كثير، وهذا يدل على ما ذكرنا،
لكن الذي يترجح لدينا: أنهما منسوختان عن أصل واحد، وذلك لوجود
بعض السقط في «م» تم تداركُه في «ت»، وبعض السقط والغلط في «ت»
تم تداركُه في «م»، والله أعلم، ومما يدل على ذلك - أيضاً -: أن ثمة
أخطاء كثيرة تتكرر، فقد جاء في «ت» و«م»: وهذه العلة تصوّر في
ذي الحجة، ثم أُلغيت كلمة (الحجة)، وصححت إلى (الحليفة)، وقد
جاء هذا التصحيح في هامش «ت»، بينما كُتبت الكلمة الصحيحة بعد
الخطأ مباشرة في «م»، ومثل ذلك كثير جداً.

والذي تبين لنا أن الأصل الذي نُقلت منه النسختان كثير الخطأ

والسقط، فقد تكررت أخطاء كثيرة في النسختين معاً، وقد صححنا من ذلك مواضع كثيرة، وزدنا على النص زياداتٍ ضروريةً، وإذا علمنا أن كثيراً من مواضع الخطأ والسقط تقلب المعنى تماماً، وتُغيّر الحكم مع استقامة اللفظ، فمن حقنا أن نظن أن الأصل المنسوخ تعرّض - فيما نظن، والله أعلم - لإفساد متعمّد، ودليلنا على هذا: كثرة السقط من النسختين معاً؛ فإننا احتجنا لزيادة (لا) وحدها في أزيد من ثلاثين موضعاً، وقد احتجنا لزيادة (لا) في ثلاثة مواضع من قوله: وأمّا المكاتب، فالمعنى فيه: أنّه ليس بكامل التصرف على الإطلاق، ألا ترى أنّه [لا] يملك التبرّعات، والحرّ بخلافه.

ولأنّها معاوضة تقضي تملكاً من الطرفين، فإذا زال بها الملك عن أحد المتعاضين، وجب أن [لا] يزول عن الآخر.

واحتجّ بأنّه لو زال ملكه، لم يكن له فسّخه بغير رضا المشتري، وأنه [لا] يجوز تصرف المشتري.

ومن أمثلة ما تعرض له الكتاب من ضرر النسخ: قوله: وإذا قتل الجماعة، قُتلوا به، وإن كان مُختلفاً فيه.

فقد جاء في «م» و«ت»: وإذا قتل الجماعة، قُتل بهم، وإن كان مُختلفاً فيه!!! وقتل الإنسان الواحد الذي يقتل جماعة من الناس أمرٌ لم يُختلف فيه - كما لا يخفى -.

ومثل هذا كثير جداً يستطيع أن يتبعه من يطالع الكتاب.

البحث السادس بيان منهج التحقيق

- ١ - نسخُ القطعة الخطية بالاعتماد على نسخة فيض الله أفندي؛ لكونها خاليةً - في غالبها - من الأسقاط الموجودة في نسخة دار الكتب المصرية، ومشملةً على مسائل من (كتاب: الاعتكاف) سقطت من نسخة دار الكتب المصرية، وذلك بحسب رسم وقواعد الإملاء الحديثة.
- ٢ - معارضةُ نسخة دار الكتب المصرية بنسخة فيض الله أفندي، وإثباتُ الصواب في متن الكتاب، والإشارةُ إلى خلافه المرجوح، أو الغلط في الهامش.
- ٣ - لما ترجَّح لدينا أن نسختي - دار الكتب المصرية، وفيض الله أفندي - منسوختان عن أصل واحد كثير الأخطاء والأسقاط، وتكررت أخطاء كثيرة في النسختين معاً، فقد صححنا من ذلك مواضع كثيرة، وزدنا على النص زياداتٍ ضروريةً جداً لا يقوم النص إلا بها، وإذا علمنا أن الكثير من مواضع الخطأ والسقط تقلب المعنى تماماً، وتغير الحكم مع استقامة اللفظ، فمن حقنا أن نظن أن الأصل المنسوخ منه تعرض - فيما نظن - والله أعلم - لإفسادٍ متعمَّد، ودليلنا على هذا: كثرة السقط

من النسختين معاً - ونعني به : سقط الحروف والكلمات ، وأحياناً الجمل ، فإننا احتجنا لزيادة (لا) وحدها في أزيدَ من ثلاثين موضعاً ، ومثل هذا كثير جداً يستطيع أن يتبعه من يطالع الكتاب ، كما أسلفنا ، وقد جعلنا كلَّ ذلك بين معكوفتين ؛ تمييزاً لها عن الأصل المخطوط ، فخرج النص بهذا قريباً من الصواب - إن شاء الله تعالى - .

٤ - ضبط ما أشكلَ من الكلام ، سواء كان في الحديث ، أو المسائل ، أو حتى كلام المؤلف بما يزيل الإشكال عند قارئ الكتاب ، ويدفع عنه الخطأ والزلل في الفهم واللفظ معاً .

٥ - عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها من الكتاب العزيز ، وإدراجها برسم المصحف الشريف ، وجعلُ العزو بين معكوفتين .

٦ - تخريج الأحاديث النبوية التي استشهد بها المؤلف - رحمه الله - على وجه الإيجاز ، والالتزام بذكر ما يعزوه المؤلف إلى المصدر الذي أخذ عنه ، وإلا ، فمن «الصحيحين» ، أو «السنن الأربعة» ، وذلك بذكر رقم الحديث فقط ، مع ذكر اسم الراوي إن لم يذكره المؤلف - رحمه الله - ، وإلا ، فمن باقي المسانيد ، والسنن ، والمعاجم .

٧ - كتابة مقدمة للكتاب مشتملة على ترجمة للمؤلف ، ودراسة الكتاب .

٨ - تذييلُ الكتاب بفهرس لرؤوس المسائل الفقهية التي ذكرها المؤلف - رحمه الله - .

هذا وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم .

صَوْرَةُ الْخَطِّ طَائِفَةٍ

الرابع من التعليقات الكبية

في مسائل الخلاف على مذهب الإمام الأعظم المجتهد الإمام الأئمة وروايات
هذه الأئمة أبي عبد الله أحمد بن محمد بن الحسين بن أبي رضى الله عنهم
تصنيف الشيخ الإمام العلامة وحيد عصره وفيد دهره القاضي أبي علي محمد بن
الحسين بن محمد الفقيه الجليلي القائل في
رضي الله عنه
في باب من الأبواب

بعض الاعتقادات وكتاب الحج ونحو كتاب البيوع المشتل
على مسائل الخلاف
مكتبة الفيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»

مكتبة الفيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»

مكتبة الفيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»



٦٩٥



صورة غلاف النسخة الخطية

لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»

علم بالعبث منذ لدس ودخل على ان المسع مردود عليه او يكون لم يعلم بذلك فغريبت
 منه ونعمير فلم يلزم المشتري منه شي وان البايج اولى بالجل عليه والجزوان
 يقال ان المشتري فوط تزل لنا مل انه لو كان معطيا لسقط حقه من الرد
 واحسن الخالف ما نه لو حدث لنفسه بالمسع قبل القبض لم يجبر المشتري
 على اخذ السلعة معه لان النقص حصل بالمسع في حاله هو معصون بها على البايج لذلك
 او احدث بالمسع المعص في المشتري وجب ان لا يجبر البايج على اخذ البيع مع
 ذلك النقص ان حدث بالمسع وهو معصون في المشتري والجواب
 ان البايج لو جلب اللين وقطع ما ما اوله في جوفه لم يجبر المشتري على قبوله
 على قول الخالف ولو حدث في يد المشتري جبر البايج على قبوله ولذلك
 وتطقت يد العبد في يد البايج لم يجبر البايج على قبوله ولو قطعت في يد البائع
 بخلافه سابت احسد البايج على قبوله وانما قد بينا ان البايج اولى بالجل عليه من
 الشاع فلم اذا نحدث في يد البايج ينع قبوله وحدوثه في يد البائع
 لان الرد هو احسن ما نال الرد بالعبث انما وضع ازاله الصنعة ويترده
 على البايج بعينه كما قد صر به والصنعة لا يراد بالقبض والى الجواب
 انما قد بينا ان البايج اولى بالجل عليه من البائع وان هذا المعنى يبطل بحلب بين
 المصدا وقطع ما ما اوله في جوفه وقطع يد العبد تلف بعض المنفعة المتأخر
 فانه في ذلك ضرر في البايج والموجود مع هذا لم ينع والرد هو الرد فان
 قيل ان الحاقه بالشعري لولى لان منه سلامة للعقد وحفظه واذا
 احتناء البايج فان فيه فسخ للعقد واطاله وما عا ديسلامه للعقد وحفظه
 فهو اولى ولهذا يقولوا امرت الله للعقدين فصار قدما صحتها واحسرت فان
 القول قول الزوج حفظ للعقد وسلامه له لذلك ما هنا في
 محبان سقط في الرد عليه لان منه سلامة للعقد ورجع بالارس وبما بينا
 ان سقط حقه من الرد المصدا وما ما اوله في جوفه وفي الاجارة للعقدين
 وحسرت والمسلم قبل مناب لولاها منا والاسم هذا ما ذكره وراحتاها
 في الاصا به ان القول قول الزوج لان المراء يدعى معنى رفع به العقد فلم يبق له وما
 فان ينع



صورة اللوحة الأخيرة من النسخة الخطية

لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»



کتاب المسائل

[illegible]

صورة اللوحة الأولى

من النسخة الخطية لدار الكتب المصرية، والمرموز لها بـ «م»

